

"يقولون إن الرجل يفكر أفضل حين يكون في الحمام"

صانع الزجاج

إرميس لافازانوفسكي

ترجمة: هند عادل



روايات مترجمة



صانع الزجاج

صانع الزجاج

تأليف: إرميس لافازانوفسكي

ترجمة: هند عادل

مراجعة وتحرير: هدى فضل

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: نوفمبر 2017

رقم الإيداع: 2017/17520

الترقيم الدولي: 9789773193591

الغلاف: آلاء هيكل



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

إرميس لافازانوفسكي

صانع الزجاج

رواية من مقدونيا

ترجمة: هند عادل



بطاقة فهرسة

لافازانوفسكي، إرميس

صانع الزجاج: رواية من الأدب المقدوني/ تأليف:إرميس لافازانوفسكي، ترجمة: هند عادل.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

1- القصص المقدونية

أ- عادل، هند (مترجم)

ب- العنوان 891.8193



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

1



"هناك بستانيٌّ في حيِّنا، إنه بارعٌ للغاية في استخدام أدواته؛ لدرجة أنه يستطيع تشذيب لحيتك الصغيرة التي تعشقها دون أن تشعر، ودون أن يطرف له رمش.. اسمه "كرابيشكو"! هكذا نقل المترجم كلام الرجل المُسنِّ الذي تعدَّى عمره المائة، وهو أطول من بالمكان عمرًا.. كان هذا رده على سؤال السيد "جورجز" الذي نقله المترجم نفسه للحضور عندما سأل إن كان هناك أي شيءٍ أو شخصٍ جلب الشهرة والفخر إلى سكان هذه الأرض المنبوذة. فسَّر المترجم بصوتٍ عالٍ كلام السيد "جورجز" الخافت:

- مثيرٌ للاهتمام! هل يمكنني رؤية هذا الرجل؟

تبادل الحشد النظرات، ثم أرسلوا شخصًا ضئيلًا لاستدعاء الرجل المشهور بمهارته. إنه لا يعيش في الريف أو المدينة، بل في ضاحيةٍ قذرة عند نهر "فاردار".

وقف الناس ينتظرون بتكاسل. ماذا سيفعلون غير ذلك في هذه الأرض الخراب؟

2



وصل "كرابيشكو" بوجهٍ غير حليق.

بدا أشبه بلصٍ عن بُعد.

وعندما اقترب بدا شابًّا يافعًا.

اقترب أكثر فبدا رأسه صغيراً مقارنةً بجسده، وصدره العريضُ والمربعُ مثل دروع الفرسان الأمامية. ساقاه قصيرتان، وذراعاه تصلان حتى خصره فقط. يلف حول وسطه حزامًا جلديًا عريضًا به عدة جيوب تحمل عدة البستنة وتشذيب حقول العنب، مثل أدوات القطع والسكاكين والمقصات.

وقف أمام سيد "جورجز" والمترجم. لم يتفوَّه بكلمة، بل وجَّه لهما نظرةً متسائلة عن سبب طلبه وعن هوية هذين الرجلين.

تبادلوا النظر لبعض الوقت.

اتضح أن "جورجز" والمترجم عضوان في جماعةٍ دينية.

كانت ثيابهما العصرية مجعدة من أثر السفر، وذقناهما نصف نامية، ونصف حليقة.

قال المترجم:

- السادة سكان الضاحية! هذا الرجل النبيل هو "جورجز بورجون" العظيم. إنه مستكشفٌ شهيرٌ ومرموقٌ لأغرب المناطق في مجاهل أوروبا، وهو أيضًا باحثٌ في الحضارات والثقافات المقارنة، وهو محبٌ للمغامرة والنبيذ الفاخر. كما أنه الملحق الثقافي الشخصي لسمو أمير فرنسا "أبيرفيل دي جرينوبل". الوثائق التي بحوزته تثبت هويته ومركزه، بالإضافة إلى أنها تمنحه الإذن المطلق للتجوال في هذه الأنحاء.

تجمَّع العرق على جبين الناس، بمن فيهم "كرابيشكو"، على الرغم من كونهم في فصل الشتاء.

واصل كلامه:

- أما أنا فمجرد مترجم، ودوري صغيرٌ وتافهٌ لدرجة أن اسمي لا يستحق الذكر، لهذا السبب لن أقدم نفسي.

قال المترجم على لسان سيد "جورجز" الذي أخذ يتمتم بالفرنسية والألمانية بخفوتٍ حتى لا يزعج المترجم:

- هل أنت هذا الرجل المشهور؟ هل أنت الرجل الذي ينسج حوله هؤلاء الناس الخرافات والأساطير؟

بصق "كرابيشكو" على الأرض، ثم تقدَّم للأمام دون أن يحنـي رأسـه أو يبعـد نظـره عن سيد "جورجز" الذي بادله النظر بدوره. اقترب "كرابيشكو" ببطءٍ حتـى وقـف عـلى بعد تسع بوصاتٍ من سيد "جورجز". لفحت أنفاسهما الكريهة وجهيهما.

قال المترجم بتعجبٍ على لسان سيد "جورجز":

- يا له من رجل!

أخرج السيد "جورجز" من جيبه حبلًا صغيرًا ليقيس به الرجل.

- لم أرَ قط صدرًا كهذا. لكن لا يمكنني الاعـتماد عـلى هـذه المعلومـة فقـط لتقـدير مهارتك التي مدحها الناس في غيابك. اسمع، سأعطيك ليرةً واحدةً الآن أمـام كـل هـؤلاء الناس إن أثبتَّ هذه الحكايات والأساطير.

أخذ "كرابيشكو" العملة النقدية وقضمها ليتأكَّد أنها ليـست مزيفـة ثـم وضـعها في جيب سترته.

أنزل ذراعيه جوار خصره المحاط بحزامٍ جلـدي عـريض بـه أربطـة وجيـوب لحمـل أنواعٍ مختلفة من مقصات الزرع؛ واحدٌ عريض بسن رفيع، وواحـدٌ طويـل بـسن قـصير، وواحدٌ قصير بسن سميك قليلًا. حبس الناس أنفاسـهم بترقـبٍ واجتمعـوا حـول الرجـال الثلاثة. لا يُسمَع سوى حفيف أشجار "الحور" عن بُعد، يصاحبها الخريـر الخافـت لنهـر "فاردار" من مكـانٍ أبعـد. لم يجـرؤ أحـدهم عـلى التـنفس، فـما بالـك بإصـدار صـوت. ضحكات بضعة أطفالٍ في الخلف هي ما أنبأت بما أوشك على الحدوث.

فجأة...

سحب "كرابيشكو" أطول مقصاته بسرعة البرق من جرابٍ على فخذه الأيمن. ثم أرجحه بدقةٍ متناهية حول سبابته اليمنى الكبيرة والصلبة. عندما توقف المقص عن الدوران لاحظ سيد "جورجز" - التابع لمذهب الرومانسية من عصر التنوير - أن رباط عباءته قد انقطع وترك العباءة تسقط عن كتفيه بلطفٍ إلى الأرض مثل ندفة ثلج.

عندها أدار "كرابيشكو" المقص حول سبابته الصلبة بالمهارة نفسها ثم أعاده إلى جرابه.

حدث كل هذا في ثوانٍ.

لم يملك أحدهم وقتًا ليلاحظ ما فعل ولا كيف فعله أو ماذا نوى.

انطلقت الضحكات ثم الهتافات الصاخبة.

صاح المترجم بالنيابة عن الناس:

- أحسنت! أحسنت!

انفجر سيد "جورجز" بالتشجيع بالفرنسية، فبعض الكلمات لا تحتاج إلى ترجمة، مثل كلمة "برافو". هدأت ابتسامة المترجم أمام هذا التشجيع العنيف. صاح سيد "جورجز":

- لا أظنني أحتاج إليك لترجمة هذا!

ثم قال للبستاني بالفرنسية:

- أيها المخرب!

بعد ذلك قال للمترجم على لسان سيد "جورجز" الذي عاد يتمتم بخفوتٍ للمترجم:

- بما أنك بستاني، هل يمكنك أن تُرينا مهارتك في التشذيب؟

أبلغ المترجم سيد "جورجز" بالجواب فورًا:

- حسنًا إذًا! فلنذهب!

بما أن "كرابيشكو" صانع خمور، فأفضل مكانٍ لإظهار مهارته هو حقول العنب البعيدة قليلًا عن الضواحي. في الواقع بدا المشهد من بعيد وكأن المترجم يسأل ويجيب نفسه.

وصلوا إلى حقل العنب. إنه شهر فبراير، الموعد المناسب لأول تشذيب لشجيرات العنب، حيث يتردد الجليد والثلوج إذا ما كان عليهم الاستمرار في إزعاج الناس أم التراجع في جوف الأرض.

لم تكن هناك حياة. لا يظهر عن بعدٍ سوى أبخرة النهر التي بدت أدفأ من الهواء المحيط بها وسط أسراب الطيور التي تقف مرتجفةً على الضفاف. من النادر أن يؤثر الشتاء بشدةٍ على نهر "فاردار". الوقائع المسجلة كانت في عام 1347 و1569 و1799، وهذا اليوم بالطبع. إنه يوم الخميس من شهر فبراير في منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا.

شق عشرة أشخاصٍ طريقهم وسط حقول العنب في الضاحية التي تتوسط الطريق بين الريف والمدينة.

عنـدما وصـلوا إلى بعـض شـجيرات العنـب رفـع "كرابيـشكو" يـده وأمـر الحـشد بالصمت.

نظر إلى أحد رفاقه نظرة معناها أن يخرج زجاجةً بها لترًا من النبيذ من حقيبته.

أمسك "كرابيشكو" بزجاجة النبيذ وشربها عن آخرها. ثم مسح فمه في كم قميـصه الذي يرتديه تحت سترته الجلدية التي بلا أكمام. بعد ذلك طلـب مـن الحـشد مجـددًا التزام الصمت.

فجأة، مد يديه إلى حزامه وسحب مقصين، واحـدًا في كـل يـد. أخـذ يـدورهما فـوق رأسه مثل أنصال الطواحين، ويضرب بهما الهواء.

دخل حقل العنب.

وصل إلى الصف الأول.

ثم أول ثلاث شجيرات.

وبدأت المعركة.

اصطدمت الفروع الجافة القديمة بوجهـه وذراعيـه. أخـذت تـضرب ظهـره وكتفيـه وتتشابك حول قدميه. كان "كرابيشكو" مـستمتعًا. عـلى الـرغم مـن أن الأغـصان ظلـت تضرب ساعديه وقصبة رجليه، ظل يحطم ويقص بالمقصات وكأنه يجـز بعـض العـشب الضعيف. لقد كان يضحك أيضًا!

تهاوت أذرع العواجيز إلى جانبهم.

وتساقطت شعور الجدات العجائز.

لم يترك أوراقًا عدا البراعم.

لا يوجد سوى تربةٍ وفروعٍ جافة وبعض الثلج.

قال الحشد:

- لقد تخيلهم بشرًا! يا له من حالم!

فسَّر المترجم كلامهم لسيد "جورجز" الذي بدأ يمسح دموع البرد القارص من عينيه بمنديله الأبيض قبل أن ينتهي ذلك العرض القصير، الذي انتهي ما أن بدأ. سمع السيد "جورجز" حفيفًا خفيفًا قبل أن يزيل المنديل ليرى "كرابيشكو" يلف المقصين حول سبابتيه. تمت المهمة، فأعاد المقصين بمهارةٍ إلى جرابيهما. صاح الحشد والمترجم الذي لم يترجم هذه المرة:

- "برافو"! "برافو"!

أخرج سيد "جورجز" ليرةً فضية أخرى.

ترددت بعض الزمجرة بين الناس.

إنه الحسد.

3



قال "جورجز":

- تعالَ معي، وسأجعلك ثريًا!

من قد يرفض عرضًا كهذا؟

لا أحد بالطبع، وبالتأكيد ليس "كرابيشكو".

سأل الآخرون بالنيابة عن "كرابيشكو":

- لكن إلى أين؟

صاح المترجم بالنيابة عن سيد "جورجز":

- إلى فرنسا، بلد الحدائق الجميلة وكروم العنب المدهش الذي ينضج ويحمل نبيـذًا دون الحاجة إلى عصره حتى!

تكلم الناس فيما بينهم كيف أن البعض قد وُلِدوا محظوظين بالفطرة.

التزم "كرابيشكو" الصمت.

يبدو أن الصمت جزءٌ من شخصيته، ولا يتعلق بأي تجارب سابقة. بل أظنه دليلًا على تردده. هذا مجرد تعبير لفظي بالطبع، ولا يتعلق بمهارته. لهذا قبل الدعوة في صمت.

الحقيقة هي أن "كرابيشكو"، على الرغم من كل أدواته وجيوبه الجلدية، ليس قادرًا على إطعام نفسه أو عائلته. من المؤكد أن حماسه تصارع مع تردده حول إذا ما كان عليه هجر أرضه المحبوبة غير النظيفة والمليئة بالحشرات والقمل، وموطنه المليء بالبراغيث والجرب، واستبدال أرضٍ بكل هذا. أرضٌ لا يعرف عنها سوى أن سكانها لا يحتاجون إلى معالجة العنب للحصول على النبيذ.

قال:

- حسنًا، لكن عليِّ توديع قومي!

- تفضَّل!

ودَّع الناس برقَّةٍ، وأبلغ أهله أنه سيسافر بضعة أيامٍ إلى "نيس" أو "بلجراد" أو ما شابه، ولن يتأخر في العودة.

4



- عزيزي "كرابيشكو"!

هكذا خاطبه سيد "جورجز" أثناء السفر إلى وسط أوروبا.

- عزيزي "كرابيشكو"! أولًا عليك تعلم اللغات؛ الألمانية، والفرنسية، وربما الإيطالية أيضًا. حتى يمكنك الاندماج بسهولةٍ في البلاد التي سنسافر إليها.

ظل "كرابيشكو" صامتًا، لأنه لا يعرف اللغات المذكورة، ولأن المترجم قد بقي في مدينة "سكوبيه" عاصمة "مقدونيا". وهكذا لا يوجد من يترجم له كلام سيد "جورجز". لهذه هذه الأسباب ولرغبته في عدم إهانة سيده الجديد، قرر "كرابيشكو" أن يستمر بهز رأسه موافقًا على كل كلام سيد "جورجز".

وهكذا مرت رحلتهما إلى وسط أوروبا بسلاسة. حاول "جورجز" تعليم "كرابيشكو" اللغات الأجنبية السابق ذكرها حتى لا يضيع الوقت سُدى.

قال "جورجز" بالألمانية:

- "Ich sprechen zie Deutsche!" أنا أتحدث الألمانية!

مال سيد "جورجز" برأسه نحو "كرابيشكو" ليكرر كلامه، لكن "كرابيشكو" هز كتفيه ببساطةٍ في عدم فهم. ثم قال "جورجز" بالفرنسية:

- "Je parle français" أنا أتحدث الفرنسية.

رد الفعل نفسه.

بعد ذلك سأله بالإيطالية:

- "Capito?" هل تفهمني؟

في كل مرةٍ يهز "كرابيشكو" كتفيه ثم يومئ برأسه ببساطة، إلا عندما وصل لكلمة "capito". رددها "كرابيشكو" بوضوحٍ تام فاندهش سيد "جورجز" وقال:

- لديك حسٌ موسيقي بالتأكيد، وتنحدر حتمًا من أسرةٍ تتمتع بالحس ذاته! والآن إلى الدرس الثاني!

تعلَّم "كرابيشكو" في الدرس الثاني كلمتي خبزٍ وماء بالفرنسية والألمانية والإيطالية، على الرغم من أنه وجد صعوبةً في ربط كل كلمةٍ بكل لغة. لكنه سيتعلم مع الوقت.

بهذه الطريقة بدأ "كرابيشكو" في تعلم اللغات الأوروبية دون أن يدري. كانا يبيتان لياليهما في أي مكان. تعلم "كرابيشكو" تقديم نفسه باسمه كاملًا ولقب عائلته على الرغم من أنه لا يملك لقب عائلة. استخدم

أقاربه أحيانًا اسم والده لقبًا للعائلة، وإن كان من الأنسب استخدام اسم والدته "أنكـا" لقبًا للعائلة لأنه عرفها أفضل. لكن لم يناسبه الأمـر، حيـث إن في هـذه الحالـة سـيكون لقبه "أنكين"، وهذا الاسم لا يصلح لرجل.



5



لو كان في مقدور "كرابيشكو" تحدث الفرنسية لقال للسيد "جورجز":

"شكرًا يا سيد "جورجز" المحترم، لأنك تريني جمال أوروبا الباهر، ولأنك تساعدني على الثراء. كل هذا بدافع إعجابك الخالص بمهارتي في تشذيب النباتات. أولًا، سكان مدينتي ممتنون لك ولإصرارك. والأهم أن تأثيرك المذهل على حكّام أوروبا والشرق الأوسط قد استطاع انتشالي من وسط صراعاتهم المشتركة التي يكون ضحاياها دومًا هم البستانيون الشرفاء أمثالي. لا أجد كلمةً مناسبة للتعبير عن امتناني الصادق لمحاولاتك تعليمي الفرنسية كي لا يضيع وقتي سُدى أبدًا".

6



لو كان "كرابيشكو" يتحدث الألمانية لقال للسيد "جورجز":

"يا للمناظر المذهلة! كيف تتناثر هذه الصخور بروعةٍ في البحر الأدرياتيكي الواسع! انظر لهذه المدن الرائعة المنحوتة في الصخر، ولهؤلاء الفتيات اللاتي يَمدُدْن أجسادهن من النوافذ لينشرن الغسيل! يا له من مشهدٍ مذهل حين رأيت البحر والسماء يندمجان معًا في الأفق خلال النهار، ثم في الليل تنعكس السماء على البحر فلا تعرف إن كانت النجوم في الأعلى أم الأسفل، وهناك! تلك القمم الشاهقة التي سمَّاها البشر جبال الألب! قمم تلك الجبال مغطاة دومًا بالثلوج وأشجار الصنوبر! متى آخر مرةٍ رأيت فيها شجرة صنوبر! اسمح لي عزيزي "جورجز"، أن أعبِّر عن خالص سعادتي برؤية ما نمر به أثناء سفرنا وبالمجهود الذي تبذله لتعليمي الألمانية. وكل هذا لمصلحتي!".

لسوء الحـظ، لا يـستطيع "كرابيـشكو" التحـدث بـأيٍ مـن اللغتـين، لا الفرنـسية ولا الألمانية، فما بالك بقول كل ذلك الكلام. على كل حال، لقد شعر بذلك من كل قلبه.



7



كان يمكنهم الاستفادة بفرصٍ أخرى!

لكن "جورجز" قرر أنه قبل الوصول إلى فرنسا سيأخذ "كرابيشكو" لزيارة بعضٍ من أصدقائه صنَّاع الخمور الذين يعيشون بجوار بحيرة "ليمان". أراد أن يريهم هذا الاكتشاف الرهيب.

قال لـ"كرابيشكو":

- كل ما ستراه في المكان الذي سآخذك إليه يختلف تمامًا عمَّا اعتدته في موطنك. الشتاء هنا أشد برودة، والبحيرات تتجمد. أمَّا في الصيف فالحدائق مزدهرة دومًا، وكروم العنب تملأ ضفاف البحيرة. والأهم من كل ذلك هو أنه لا يزعجك أي شخص!

"كرابيشكو" الصامت. يتحدث لكن نادرًا.

ماذا يمكن أن يقول حين تتشابه الأمور عليه؟ إنه لا يستطيع التمييز بين أراضي فرنسا وألمانيا، ولا حتى بين لغتيهما.

مرا بالعديد من البلدات والقرى التي نسي "كرابيشكو" أسماءها بمجرد أن سمعها.

رأيا بحيرة "ليمان" عندما نزلا من تلٍ مغطى بالجليد في جبال الألب. حتى في ذلك الوقت كان معروفًا أن الوحوش لا تسكن في أعماق هذه البحيرة.

كانا يرتديان فراءً سميكًا اشتراه "جورجز" أثناء السفر، هذا ضروري في البلاد المكسوة بالثلوج.

بدأت الشمس في الغروب ولم تتجمد البحيرة بعد. انعكست أشعة الشمس الحمراء على سطحها. الشواطئ مُغطاة بالثلوج الكثيفة، مثل الجبال. يمكنك أن ترى الكنائس العالية أو أبراج الكاتدرائيات أينما ذهبت، سواء في ريف القرية أو ساحة البلدة. أُعجِب "كرابيشكو" بما رآه، لكنه تمنى الرحيل بأقصى سرعةٍ بسبب البرد القارس.

شعرا بالإرهاق التام عندما وصلا غرب البحيرة.

لا يوجد أثرٌ لكروم العنب! ولا للحدائق المزدهرة!

حتى الآن.

8



ها هم أصدقاء "جورجز".

صاح "باسكال":

- كيف حال صديقي "جورجز"؟

كان تاجر الخمر يجلس على مائدة في بار على الطريق ومعه اثنا عشر رجلًا بلا عملٍ في هذا الشتاء. طباع العاطلين واحدة في كل مكان.

بدأ "جورجز" يحكي لهم عن الأماكن التي زارها والناس الذين قابلهم. أخبرهم أنه سافر إلى كل الأماكن الخطرة التي أطلق عليها الرومان اسم "أوبي ليونيس" للإشارة إلى خطورة أي مكان.

فهم "كرابيشكو" من الحديث كلمة "أوبي" التي تعني "قتل" بالمقدونية التي هي لغته الأم، فأمسك بمقصه غريزيًا. فأنت لا يمكنك أبدًا معرفة ما سيحدث لك في بلدٍ أجنبي وسط غرباء.

قال سيد "جورجز" لمستمعيه أنه ذهب لأماكن مليئة بالأنهار الواسعة والحقول الجميلة المزدهرة ورائحة الشاي في موسم الصيف. رأى أناسًا بارعين في مهنتهم على الرغم من افتقارهم للذكاء والمنطق. رأى كنائس في غاية الصغر لدرجة أنها تسع اثنين فقط في كل مرة، ومساجد ضخمة تسع مائة مصلٍّ في الوقت نفسه. شاهد أطفالًا فرحين، وبحيراتٍ صافية عذبة.

ماذا عن حقول العنب؟ هل رأى أي حقول عنب؟

قال "جورجز":

- رأيت حقول عنبٍ أكثر مما تتخيلون!

عندها اتسعت أعين الجميع ونظروا إلى "كرابيشكو" وهيئته الغريبة والمهيبة.

- هل هذا الرجل صانع خمور؟

- صانع خمور، وبستاني، وأشياء أخرى.

- ماذا تعني بأشياء أخرى؟

- هذا الرجل محترفٌ وخبيرٌ في مهنته، بل هو أيضًا مقاتلٌ يفوز دائمًا!

بدأ الألمان والفرنسيون والإيطاليون المجتمعون ينظرون إلى "كرابيشكو" بتمعن. ثم استخدم كلٌّ منهم لغته ليسأل "جورجز":

- حسنًا، ماذا يمكن لصديقك هذا أن يفعل؟

- ماذا يمكنه أن يفعل؟ إن دفعتم له سيريكم براعته. ادفعوا ثلاث عملاتٍ نقدية كبداية، وسترون.

السُكر.

السُكر لن يصيبك فقط بالصداع، بل أيـضًا بالإرهـاق، خاصـةً عنـدما يـأتي الأمـر إلى مواجهة جسدية بين مجموعة سكارى.

كان الجميع سكارى بالفعل بسبب حفلة الـشرب، ووعـدوا بإعطائـه المـال إن كـان العرض مسليًا.

أشار "جورجز" إلى "كرابيشكو" فنهض.

خلع معطفه وظل بقميصه فقط.

اندهش الناس من ضخامة صدر "كرابيشكو"، وصنَّفوه فورًا على أنه بطل.

صاحوا:

- هل يمكننا أن نلمس هذا الصدر المدهش؟

عندما طلبوا الإذن من "جورجز"، طلبوا الإذن كذلك من صاحب البار.

قال "جورجز":

- بالطبع يمكنكم، بشرط أن تدفعوا.

وقف مالك البار وتحسس صدر "كرابيشكو" بيديه، ثم قال:

- ممم.. هذا الرجل قصير، لكن بنيته قوية. يمكنه فعل الكثير. لنرى ماذا يجيد.

تحمَّس "كرابيشكو" فانتفخ صدره أكثر.

دار "جـورجز" في الغرفـة عـدة مـرات، لكنــه لم يجـد شـيئًا يـصلح لإظهــار مهــارة "كرابيشكو".

فجأة لفت انتباهه قبعة المالك العريـضة، فأشـار إلى "كرابيـشكو" الـذي فهـم عـلى الفور.

نهض مبتسمًا وأخرج مقصين بخفةٍ ثم أخذ يدورهما في الهواء عـدة مـرات قبـل أن يعيدهما إلى جرابيهما.

اندهش الجميع حين رأوا طرف قبعة المالك يتساقط حول عنقه تاركًـا قمـة القبعـة على رأسه فصارت تشبه الطربوش الصغير.

ضحك الحشد وعلى رأسهم "باسكال"، وصاحوا: "برافـو!"، مـما أسـعد "كرابيـشكو". فهذا يعني أنه قد يكتسب شهرةً هنا. انزعج المالك، وقال إن الضرر كان أكبر من متعـة الخدعة. فالقبعة التي يرتديها بكل فخرٍ كلفته خمس قطعٍ نقدية، في حين من المفـترض أن يدفعوا له ثلاث قطع. هذا يعني أن "جورجز" مدينٌ لمضيفيه بقطعتين نقديتين.

قال "جورجز":

- ومن سيدفع مقابل عرض "كرابيشكو"؟

- أنت ربحت ثلاث قطع، لكن الضرر سيكلفك خمسًا، لذلك لا تعترض! فلتدفع!

اضطرب "جورجز" ونظر إلى صديقه الضخم الذي أدرك أنهما في خطر فزمجر.

لن يعبث الحضور أبـدًا مـع هـذا "الجـزّار البلقـاني" كـما لقبُّـوه. لـذلك قـالوا إنهـم سينسون ما جرى. لكنهم لم يفعلوا.



9



تبادل السيد "جورجز" و"باسكال" الكلام الآتي:

- كم تطلب مقابل هذا الرجل؟

- ماذا تعني؟

- هذا الرجل ليس للبيع.

- سآخذه إلى "بوردو"! سأجعله يعمل في كروم العنب لصناعة الشمبانيا!

- أنا أحتاج إليه، ولن أتخلى عنه!

- ما رأيك بعشر قطعٍ ذهبية؟

10



من المعروف أن لكل رجلٍ سعره.

عشر قطعٍ ذهبية! في قرنٍ كان ملك ساردينيا "فيكتور إيمانويل الثاني" يبتكر خططًا عظيمة، والمستشار الألماني "بسمارك" يستعد للحرب؛ في وقتٍ تغور فيه الجيوش على وسط أوروبا، والحكام يصارعون لحل مشاكلهم بأي ثمن سواء بالحرب أو الضرائب؛ في عصرٍ كان الشاعر "هنريش هاينه" في شيخوخته يتحدث عن ألمانيا الشابة، ويكتب الشاعر الثوري "بيتوفي" عن أوروبا، وكيف تجرد الشعب "الهنجاري" من حقوقه فيها؛ في قرنٍ لا يهتم سكان أوروبا فيه بطبول الحرب بين أمريكا والمكسيك، ولا يهتمون حتى إذا ما أصبحت "تاهيتي" تحت وصاية فرنسا أم لا؛ في عصرٍ أظهر فيه "فرانز جوزيف" اهتمامه بعرش النمسا... هذا يعني أن عشر قطعٍ ذهبية في هذا الوقت كانت ربحًا عظيمًا، حتى لو كان ذلك أثناء حرب القرم التي لم يهتم بها "كرابيشكو" أبدًا.

عشر قطعٍ مبلغٌ كبيرٌ!

على كل حال كان هـدف "باسـكال" هـو أن يعمـل لديـه هـذا الرجـل مثـل الآلـة. فحقول العنب المحيطة ببحيرة "ليمان" تحتاج إلى عامل بقوته.

لكن هذا المنطق لا يهم بالنسبة لرجلٍ يرضى بأقل القليل مثل "كرابيشكو".

لم يلحظ أحدهم "جورجز" وهو يخفض صوته ويقول لـ"باسكال"، بلهجةٍ سويـسرية وبلغةٍ لا يفهمها سواهما، إن هذا الرجل محترفٌ وخبيرٌ لا يمكن معاملتـه إلا عـلى هـذا الأساس. فقال "باسكال":

- إحدى عشرة؟

أضاف "جورجز" أنه مستكشفٌ شغوفٌ لكل ما هو مجهول، ليس فقط المناطق بـل أيضًا العادات والطباع البشرية. قال إنه يكتب بحثًا صغيرًا، دراسة عن تأقلم شيءٍ ما مع الواقع الموضوعي المحيط بنا؛ لذلك يحتاج إلى "كرابيشكو" بشكلٍ أساسي.

- اثنتا عشرة؟

يشير مصطلح "الواقع الموضوعي" إلى بعض الدول الأوروبية وعلاقاتها المتبادلـة، بما فيها فكرة التأقلم مع الآخر، وتأقلم ما هو غير أوروبي مـع الواقـع الـذاتي الأوروبي. لقـد استُخدِم موضوع التأقلم في العديـد مـن النـوادي الأدبيـة والمنتـديات في أوروبـا. ورأيـه الراسخ هو أن ليس كل شيءٍ قابلٌ للتأقلم، وأن التأقلم يبدأ من تعلم اللغات.

- ثلاث عشرة؟

حتى إن تعلَّق الأمر بشخصٍ ماهرٍ كهـذا، ينحـدر مـن إحـدى المنـاطق التـي أطلـق عليها الرومان اسم "أوبي ليونيس".

- أربع عشرة؟

لكن قبل أن يسهب "جورجز" في شرح نظرياته، لاحـظ أن "باسـكال" اسـتدار ليـترك الصفقة بالفعل. فأسرع ليقول:

- لقد أقنعتني!

هكذا رحل "جورجز" للأبد بعد الوداع.

قال مالك البار:

- جيد! تمت الصفقة!

اتفقا شفهيًا على أن يعمل "كرابيـشكو" في خدمـة "باسـكال" خـلال الموسـم مقابـل أربع عشرة قطعةً ذهبية.

"برافو!"

11



"كرابيشكو" ليس غبيًا

على الإطلاق!

لديه غريزةٌ فطريةٌ للبقاء. ولهذا السبب سلَّم أمره لله.

في الحكايات الغبية التي تحكي عن ضياع أجانبٍ في بلادٍ غريبة، يسكن الغريب مع سيده الجديد - مثلما حدث تمامًا في حالة "كرابيشكو". هدفه الرئيسي الآن هو تعلم لغات هذا البلد الجديد. "المضطر يركب الصعب". لقد تعجب من سرعة تعلمه، حتى إنه تكلم بهذه اللغات في نومه. وهو ما كان يريد تحقيقه.

عندما ذابت الثلوج رأى "كرابيشكو" مناظر مألوفة. انبثقت كروم العنب من تحت الثلوج بجوار البحيرة. فأحس "كرابيشكو" بالسعادة الغامرة.

شعر وكأنه وسط قومه وقال لنفسه: "ها هو اللص "يوسف"، وهذا هو السكير "بيمبو"، وهذه العاهرة "ماري"، هؤلاء هم الجدات والجدود

يتمتعون بأشعة الـشمس، وهنـاك يـسبح الأطفـال الـصغار في نهـر "فـاردار"، أمـا تلـك فعروس...".

جرى إلى الحقول وهو يملأ صدره الضخم بالهواء ثم ألقى بنفسه وسط الأغـصان. لم يسحب مقصيه ليقطعها هذه المرة، بل أخذ يصافح الكروم ويعانقهـا، بيـنما يغنـي لهـا أغاني مقدونية قديمة مـن الـتراث الـشعبي. كانـت كـروم العنـب سـعيدةً لأنـه لا أحـد يقصها، وحاولت أن تربت على وجهـه وجـسده. لكـن فرحتهـا لم تـتم. كـان "باسـكال" يشاهد "كرابيشكو" من أعلى. هز رأسه وتمتم:

- أعوذ بالـلـه!

ثم أضاف بصوتٍ عالٍ:

- أظن أنه قد حان الوقت لتبدأ العمل!

لم ينتظر "كرابيشكو" أبدًا أن يكرر أحدهم الأوامـر. لم يـسمح بـذلك طـوال حياتـه. حتى إن حاول أحدهم تكرار أوامره فلن يـستطيع ذلـك، لأن "كرابيـشكو" يبـدأ العمـل بمجرد أن يسمع الأمر، ولم يعطِ أبدًا الانطباع بأنه كـسول. لـذلك لم يـتردد في الاسـتجابة للأمر منعًا لسوء التفاهم. توقَّف عقلـه عـن التفكـير وغـلى الـدم في عروقـه وانتفخـت ذراعيه. دخل حقل العنب وبدأ يقطع ويقص بمهارة شخصٍ تدرب على فعل ذلك طوال حياته.

فجأة، أحاطـت الأغـصان بــ"كرابيـشكو" وأخـذت تـضرب وجهـه، وكأنمـا أحست بوجود "باسكال" الذي انـضم إليـه، لكـن بـبطءٍ شـديد مقارنـةً بـه.

كان صانع الخمر يتنافس مع "كرابيشكو". صاح "باسكال"، بينما تتساقط الفروع المقطوعة من حوله:

- نحن السويسريين لطالما كنا جنودًا! دائمًا نقاتل! شارك جدي في كل معارك الفرنسيين ضد الألمان وضد الروس وضد الفرنسيين أنفسهم. قاتل أبي من أجل استقلال سويسرا، وأُصيب بالكثير من الجروح في تلك المعارك. أنا أيضًا تلقيت جروحًا عديدة، بينما نحاول توسيع أمتنا ببضع مقاطعات.

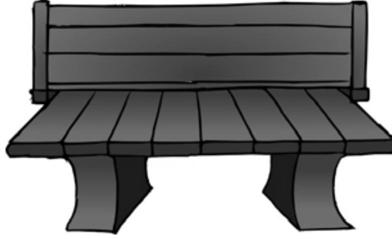
أراد أن يثبِت وجهة نظره، فكشف "باسكال" لـ"كرابيشكو" ندبةً غائرة ما زالت تعيق حركته في أعلى ذراعه اليسرى. لقد أصيب بها في معركةٍ قصيرة بين القوى الديمقراطية الليبرالية والمقاطعات الكاثوليكية التي عارضت تغيير الاتفاقية الفيدرالية أو ما شابه. انضم والده شخصيًا إلى جانب الفرنسيين في المعركة ضد الجنرال "سوفوروف". انحدر "باسكال" من سلالةٍ طويلة من الجنود، لكنه بدأ بصناعة الخمر عندما حل السلام أخيرًا على البلاد. رد "كرابيشكو":

- حقًا!

تصبَّبا عرقًا فجلسا على الأرض وسط الأغصان المقطوعة والمحطمة. قال "باسكال":

- لقد ربحنا هذه المعركة أيضًا على ما يبدو!

12



مثل الحجر القاسي.

أو مثل الخشب الخشن.

هكذا بدا "كرابيشكو" وهو جالسٌ على مقعدٍ خشبي وإلى جانبه يجلس مالكه "باسكال"، وزوجته وأطفاله في قداس يوم الأحد في كنيسة "سانت برنارد". هكذا تجري العادة بين المؤمنين هناك.

جذب اهتمامه الزجاج الملون للنوافذ العالية بالقرب من سقف الكنيسة المرتفع.

تأمَّل رسمًا لقديسٍ باللون الأزرق تحيط برأسه دائرةٌ صفراء مضيئة. كان القديس يحمل كتابًا في يديه. هناك الكثير من الناس يركبون الخيول على يمينه، أمَّا على شماله فهناك الفلاحون وأناس راكعون يصلون له. كان الفلاحون باللون البني، والجنود باللون الأحمر. تظهر الأم العذراء

على سحابةٍ بيضاء فوق القديس. ارتدت ثوبًا باللون الأزرق الداكن. النافذة بكاملها مكونة من مربعاتٍ زجاجية صغيرة ملونة بحرفيةٍ شديدة. فجأة، وبينما يتأمل "كرابيشكو" تلك المعجزة الدينية، عبر شعاع الشمس من يدي العذراء التي كانت تربت بها على بطن المسيح الطفل في الرسمة الزجاجية الزرقاء، ثم سقط مباشرةً على وجه "كرابيشكو"!

لم يكن ضوءًا عاديًا، بل مزيجًا من الألوان الموجودة على النافذة من أخضر وأزرق وأصفر وبرتقالي. تراقص شعاع الشمس على خديِّ "كرابيشكو"! بينما ارتفعت ترانيم الكنيسة، ارتفع الضوء شيئًا فشيئًا حتى تخطى عينيه ووصل لجبهته. كان مندهشًا ولم يعرف ماذا يقول. تلوَّن وجهه بمختلف الألوان التي لم يرها، ولكنه شعر بها. لم يستطع أن يغلق فمه أو قلبه.

بينما نظر المصلون إلى وجه "كرابيشكو" بتعجب، ظل ينظر هو بذهولٍ إلى النوافذ. مضى وقتٌ طويل منذ أن رأى جمالًا باهرًا كهذا في مكانٍ واحد، إن كان قد رأى جمالًا بهذا القدر أصلًا في حياته. لم يرَ قط مقدساتٍ مرسومةً على زجاج. مقدسات زجاجية. لقد رأى العذراء والمسيح وكل القديسين من قبل على ألواحٍ خشبية مطرزة بالذهب أو منقوشة على الجدران... لكن ليس على الزجاج أبدًا.

فتح "كرابيشكو" عينيه عن آخرهما، ولفت انتباهه بعض القطع الزجاجية المفقودة بين العذراء والقديس، يبدو أن شخصًا أو شيئًا قد حطم الزجاج. من خلال تلك الفجوة يمكن لأي شخصٍ أن يرى السماء الزرقاء الصافية. تلاءمت زرقة السماء مع الزرقة التي في الرسمة، ولوهلةٍ لم يفرِّق

"كرابيشكو" بين السماء والقطع المفقودة ظنًا منه أنها جزءٌ من الرسمة له لـون وصـفاء السماء نفسه.

ابتعد الضوء عن وجهه وعاد المصلون إلى صلاتهم.

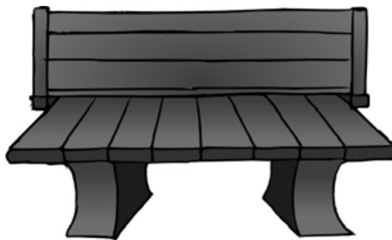
عاد يجلس فاغرًا فاه من الدهشة طوال القداس الذي لم يفهم منه حرفًا.

كيف صنعوا زجاجًا كهذا؟

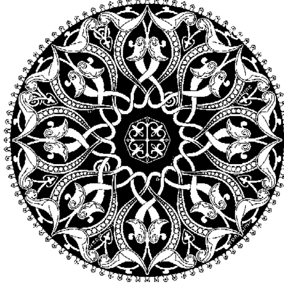
قال له "باسكال" وهما يغادران الكنيسة:

- لاحظت أنك شعرت بالغرابة في ذلك القداس. لا تقلق، فأنت مسيحي أيضًا. نحـن نعبد الرب نفسه ونبجل نفس القديسين ونتعلم من الكتاب المقدس ذاته؟

- نعم، ولكننا لا نملك الزجاج الملوّن نفسه في كنائسنا.



13



لا بد أن القطع المكسورة ما زالت هناك! هكذا فكَّر "كرابيشكو" وهو عاكفٌ مع عمالٍ كثر على فصل العنب القديم عن الجديد، ويتأمل قمم الجبال المغطاة بالثلج عبر البحيرة.

لا بد أن الشظايا في مكانٍ ما بالداخل أو الخارج؟

بينما انشغل ذهنه بالتفكير، جرح المقص سبابته فسال خيطًا رفيعًا من الدم. "كرابيشكو" لم يجرح نفسه بمقصه من قبل قط. لم يحدث هذا طوال حياته! لقد أتقن عمله بحرفيةٍ لدرجة أنه لم يعد بحاجةٍ إلى الحرص أثناء تشذيب كروم العنب بسبب مهارته الخالية من الأخطاء. لكن الأمر قد حدث. تفاجأ بشدةٍ حين أحس بألمٍ حاد مثل لسعة الدبور في سبابته اليمنى. لم تهتز عضلةٌ في وجهه، لم يظهر أدنى دليلٍ على الألم، لم يتوقف حتى ليرى ما جرى. لأنه عرف بالضبط ما جرى. بالإضافة إلى أنه لو توقف لحظةً ليسترق لمحةً خاطفة إلى إصبعه فلاحظه الآخرون سيتبدد فخره بلا

رجعة. لذلك ظل صامتًا وواصل التفكير. ظل يمسح الدم الذي سال من إصبعه على أوراق العنب الجديدة حتى توقَّف النزيف من تلقاء نفسه.

طافت السحب حول قمم جبل "مون بلون" المعروف بـ"الجبل الأبيض". يمكن رؤية إيطاليا في الأفق من هنا.

قال لنفسه: "كل ما عليَّ فعله هو اختيار اليوم والوقت المناسبين".

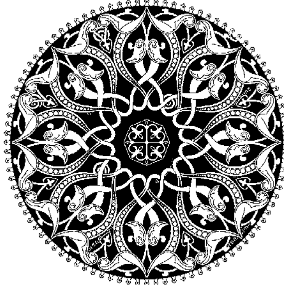
قرر البحث عن القطع المكسورة المفقودة.

اختار يوم الأربعاء عند الغروب.

كان القساوسة يقومون بصلاتهم المعتادة. أبواب الكنيسة مغلقة، لكن كل شخصٍ يعرف أنه عليه فقط دفع الباب إن أراد الدخول.

دفع "كرابيشكو" الباب ودخل. شعر برجفةٍ كما هو الحال عند دخول الكنائس. لا بد أن الجو شديد البرودة هنا في بيت الرب. بل قارص البرودة. أغلق الباب الضخم وخطا إلى المكان المألوف. جلس ورفع نظره ليرى المشهد نفسه الذي رآه منذ عدة أيام. شاهد الفجوة الناجمة عن القطع المفقودة. ثم أدار بصره في الكنيسة. رأى التماثيل الرخامية للسيدة العذراء والمسيح بوضوحٍ أكثر. ابيضَّ وجهاهما وأصبحت أعينهما حزينة. عاد ينظر إلى الفجوة وخمَّن قياسها. جال ببصره من الأعلى إلى الأسفل باحثًا عن المكان الذي ربما سقطت به القطع المفقودة. نهض ليبحث في المكان الذي ظن أنها سقطت به. لم يجد شيئًا. لا بد أنها سقطت بالخارج.

فجأة، سمع خطوات خارج الباب، فاختبأ "كرابيشكو" بقفزتين تحت السلالم التي تقود إلى الدور العلوي من الكنيسة. تكوّر على نفسه بين الدرجة الثالثة والرابعة من السلم ليراقب ما سيحدث، بينما ينتفض قلبه خوفًا.



14



دخل حرفيٌّ خبيرٌ إلى الكنيسة.

يستطيع "كرابيشكو" أن يميز الحرفيين الخبراء عن بُعد. نظراتهم متفاخرة ومشيتهم قوية. أعينهم تنظر للأعلى مع أنوفهم المرفوعة، لكن خطواتهم وحركاتهم بطيئة. دومًا يحملون حقيبة أدوات تخص مهنتهم في إحدى أيديهم، بينما يطوحون الأخرى. ينظر الحرفيون الخبراء إلى عامة الناس بتدنٍّ، وكأن أولئك الناس ليسوا خبراء في مجال عملهم كذلك.

تتحرك أصابعهم في تناغمٍ تام حين يعملون. كل إصبعٍ تعرف أين تتحرك وماذا تفعل. هناك أصابعُ مهمتها مساعدة الأصابع الأساسية في العمل، وأصابعُ لا استعمالَ لها على الإطلاق. الخبراء يعرفون ذلك، ويستغلون مهارتهم بقدر المستطاع. في مدينة "سكوبيه" كانوا يتبارون فيما بينهم وكأن الطاعون قد حل عليهم وسيمحيهم من على وجه الأرض.

هذا الحرفي الخبير لا يختلف عن غيره فيما عدا هذا الشعر الفضي الطويل المربـوط بشريطٍ أحمر. إنه رمزٌ للشخص التابع لمذهب الرومانسية بالتأكيـد! شـعر "كرابيـشكو" بالغرابة عندما رأى رجلًا يربط شعره كذيل الحـصان، لكنـه قـال لنفـسه إنـه سـيحتمل رؤية ذلك خاصة بعدما رأى الكثير من غرائب العالم.

توقف الحرفي عند النافذة المكسورة ونظر للأعلى ثم خرج وعاد حاملًا سـلمًا. وضـع السلم مباشرةً تحت النافذة وفتح حقيبة أدواته الكثيرة ثم تسلق السلم.

رأى "كرابيشكو" كيف تمكّن الحرفي من تكسير باقي النافذة بمطرقةٍ صـغيرة. وكيـف نزل وأخرج قطعًا أخرى من الزجاج الملون من حقيبته، ثم صعد مجددًا ووضـع القطـع الجديدة محل القديمة تمامًا.

شاهده "كرابيشكو" وهو يصعد مستندًا على ثوب العذراء في الرسـمة، ويـضع رأسًـا أزرق اللون لحصانٍ صغير، ووجهًا أصفر لرجلٍ يبتهل بالدعاء، وقطعةً شفافة من السماء الزرقاء وهالة القوة الصفراء التي تنبعث من المـسيح. وضـع قطعـةً مـن عينـه الزرقـاء الثاقبة، وكأنما ترى فيها خلق العالم. ثم وضع قطعةً من التربة الصفراء التي خطـا عليهـا الفانون، وقطعةً من رسمة الكون.

وأخيرًا، وضع مزيجًا من الصمغ ليلصق القطع معًا.

أثناء العمـل لم يدنـدن أو يـصفّر، ولم يلتفـت يمينًـا أو يـسارًا، ولم يـشرب نبيذًا أحمر. رأى "كرابيـشكو" أصـابعه الطويلـة النحيلـة وهـي تتبـع نظرتـه

الهادئة. وكأنه لا يتنفس أثناء العمل، وكأنه رجلٌ آخر، وكأنه اتحد مع صورة المسيح.

انتهى الحرفي الخبير من عمله في نصف ساعة، ثم جمع عدته ورحل.

تسلل "كرابيشكو" خارجًا بعده مباشرةً. ثم ذهب إلى الكنيسة وجمع بسرعةٍ قطع الزجاج المتناثرة على العشب. بعد ذلك تتبع الحرفي.

هدأت القرية، بينما امتلأت الغابات القريبة بالسكارى والعاهرات من الباحثين عن اللذة. سار الحرفي ببطء، سامحًا لـ"كرابيشكو" بتتبعه. تبعه "كرابيشكو" إلى نهاية الطريق، حيث يمكن لأي شخصٍ رؤية الأراضي الألمانية عن بُعد. رآه يدخل بيتًا كبيرًا له فناء. كان يشبه القبو وله مدخنة ضخمة تنفث دخانًا داكنًا كثيفًا. هناك الكثير من الزجاج يحيط بالمنزل، منه المكسور والكبير والصغير والشفاف والضبابي. هناك أيضًا الكثير من الأخشاب مختلفة الأحجام، والجرادل الممتلئة بالماء والمنقوع فيها بعض القمصان المبللة بالعرق.

حل الليل منذ وقتٍ طويل، وتلألأت النجوم في السماء. كلما اقترب "كرابيشكو" من البيت أصبح الجو أكثر دفئًا. دار حوله ثم تراجع إلى حافة الغابة القريبة. جلس على صخرةٍ هناك ولاحظ أن المنزل بلا سقف. هناك فقط مدخنة تبرز من مكانٍ ما بالأسفل. في هذه اللحظة رأى "كرابيشكو" أغرب شيءٍ في حياته بينما كان مختبئًا بين الصخور.

كان يشبه الفرن.

وضع عاملان فيه مواسيرٍ معدنية طويلة، وأخرجا منه كراتٍ بيضاء صغيرة ومشتعلة تشبه الشموس. نفخ العاملان في المواسير ,بدأت الشموس البيضاء تتمدد وتتضخم. بمجرد أن حقق العاملان الشكل المنشود وضعا الشموس المعدلة في قوالب عديدة وكرروا الأمر.

إنه فرنٌ لتشكيل الزجاج.

شعر "كرابيشكو" بالذهول وقال:

- يا للروعة! يا للروعة! لا يوجد هذا في موطني، ولن يكون أبدًا.

عندما وصل الحرفي الخبير إلى الورشة ترك العاملان ما يفعلان واستقاما لتحية رئيسهما بتلويحةٍ غريبة بيدهما. لم يرد الحرفي الرئيس بكلمة، بل واصل سيره إلى مائدةٍ عليها عددٌ كبيرٌ من الزجاجات متعددة الألوان وأغراضٌ زجاجيةٌ أخرى. جلس يتفحصها. أولًا، يرفع الأشياء وينظر من خلالها ثم يقربها من أنفه ويشمها. بعد ذلك يغمض عينيه ويتحسس سطحها الأملس بيديه الخشنتين. في النهاية تفحصها كلها بقضيبٍ معدنيٍ صغير. كل زجاجةٍ تصدر صوتًا مختلفًا عند طرقها. عندها يقربها الحرفي الخبير من أذنه ويحرك ملامحه تجاوبًا مع الصوت الذي تصدره الزجاجة.

لا يستطيع "كرابيشكو" سماع صوت الزجاجات من مخبئه خلف الصخرة، لكنه يرى ألوانها بوضوح ويكاد يشعر بملمسها الأملس.

أمسك الحرفي الخبير فجأة بالزجاجة الأخيرة التي قربها من أذنه للتو. ثم حطمها بغضبٍ شديد في جدارٍ مخصص لتحطيم الزجاجات الفاسدة.

تطايرت مئات الشظايا على الجدار، وسقطت في الحوض المعدني الموضوع أسفل الجدار. احتوى الحوض على زجاجٍ محطم بآلاف الألوان.

نهض الخبير وصاح في العاملين:

- كما تعرفان، لقد تعلمت الصنعة في أشهر مكانٍ بالعالم، في "فينيسيا" في ورشة الخبير "ليوناردو بيازا"، وفي مدينة "كولونيا" الالمانية في ورشة الخبير "شولتس فيسماستر". أيها المغفلون، هل سمعتما عن هذين العبقريين؟ هل سمعتما؟ لم تسمعا، صحيح؟ حسنًا، عليكما معرفتهما لأن كل ما صنعاه يعد قطعًا فنية بحق. هل تفهمان؟ الأمر ليس فقط صنع زجاجاتٍ ليضع فيها الأغبياء الخمر، بل هو فنٌ حقيقي ومتميز. ما الذي تفعلانه معي هنا؟ هل يمكنكما الإجابة؟ لا تعرفان! سأخبركما إذًا.

أخفض العاملان نظرهما حرجًا.

- أنتما لا تتعلمان مني الصنعة وحسب، بل الفن أيضًا! والفن لا يتعلق فقط بالنفخ في الزجاج، بالفكرة! الفكرة هي الأساس! ما الفكرة؟ إنها رؤية مثالية! بالطبع الحمقى أمثالكما لا يقولون ما الفكرة لأنهم لا يعرفون. الفكرة هي شيءٌ لا يمكنك لمسه أو تخيله. الفكرة - أيها الغبيان - هي طاقةٌ صافية. الفكرة هي شيءٌ تريد الطاقة الكونية تحقيقه على الأرض، فتستعملنا نحن البشر لإنجازه كي تحررنا من الفقر الروحي. هكذا هو الأمر، الإنسان يدرك طاقة الفكرة. كل من لديه فكرة يكون مبدعًا. هكذا يكون هو أيضًا طاقةً صافية.

أخفض العاملان رأسيهما أكثر، في الوقت نفسه الذي تشبث فيه "كرابيشكو" بالصخرة أكثر كي يختبئ.

قال الخبير لأحد الشابين:

- بعد ذلك أتت الأيام المجيدة في جزر "مورانو" في ورشة "بروجي تانتيلي" الشهير. يفترض أنك تعرف "تانتيلي" أفضل مني يا "ميليفيوري".

أمسك الخبير بزجاجةٍ أخرى وقذفها ناحية الجدار، فتفتت وسقطت في الحوض مع آلاف الشظايا الأخرى. ثم واصل كلامه:

- ستأتيكما الفكرة حين تتقنان الفن، وعندها ستقولان "نعم، الآن أصبحت أتحكم بالطاقة". لكن الأهمية لا تكمن فقط في الفكرة. لأننا إذا اعتمدنا على الفكرة وحسب وتجاهلنا مهارة الأيدي والأعين، ستموت الفكرة.

"مهارة الأيدي مهمة، والجسد مهم...".

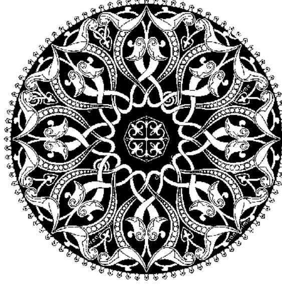
هذا هو كلام الخبير، لكن "كرابيشكو" لم يعِ قصده تمامًا. لقد فهم كل كلمةٍ منفصلة، لكنه لم يدرك معناهم وهم معًا. على كل حال، لقد فهم أن الخبير غاضب بسبب فشلهما في العمل.

انتبه "كرابيشكو" فجأة أن الظلام قد حل تمامًا وسيواجه المتاعب لتأخره، وربما يتعرض للضرب أيضًا.

"كرابيشكو" المسكين!

لم يحدث أيٌّ شيء من هذا، بل أسوأ منه بكثير.

15



كلمة "مشحون بالغضب" هي تقليلٌ لهول ما حدث!

لو كان "كرابيشكو" أكثر حكمةً ولباقةً لكان الوصف الذي جال بخاطره هو "هستيري". فالهستيريا هي أفضل وصفٍ للوضع الحالي في بيت "باسكال".

النسوة يصحن بأقصى طاقتهن ويسرعن جيئةً وذهابًا في الفناء وكأنهن ملبوسات. الأطفال يصرخون والعمال اختفوا. دخل "كرابيشكو" الفناء واهتزت ركبتاه خوفًا حينما لم يفهم لماذا تسبه إحدى النساء بشدة. اسمها "هيثيرتو"، ولكنه لا يميزهن من بعضهن مطلقًا.

تساءل "كرابيشكو": "هل يعقل أن كل هذه الجلبة بسبب غلطةٍ بسيطة؟".

ظهر "باسكال" وهو يقذف الخشب والحجارة على الآخرين بما فيهم الكلب الذي تمكَّن من الهرب في اللحظة الأخيرة وهو يعرج ليختبئ خلف

برميلٍ خشبي لجمع الأمطار. تعرَّف "كرابيشكو" مؤخرًا على أكثر الشتائم بذاءةً في اللغات الثلاث التي تعلمها، وفهم العشرات منها من السيل الذي ينهال عليه، بينما يقترب "باسكال". احتوت الشتائم على ذكر والده ووالدته وجيرانه وصليبه وكلبه وقطته... حين انقض عليه "باسكال" مادًا ذراعيه إلى عنقه، مد "كرابيشكو" يديه غريزيًا إلى مقصات البستنة المعلقة على ردفيه ليدافع عن حياته.

وهكذا عندما اقترب "باسكال" ثلاث أقدامٍ من عنقه، استعد "كرابيشكو" تمامًا ليقطع عنقه بضربةٍ واحدة. لكن "باسكال" كان واعيًا للخطر المحدق به، فتراجع قبل فوات الأوان. ونتيجة لذلك، اشتدت حدة سبابه وعلا صوته.

صاح "باسكال" وهو على بُعد نصف مترٍ من "كرابيشكو":

- أيها اللص المحتال! ستتعفن في السجن. لص!

ظل يصرخ وعجز عن كبح نفسه فصفع "كرابيشكو" بعنف. لسببٍ ما امتنع "كرابيشكو" عن الإمساك بمقصيه وتشريح "باسكال"، بل تحمَّل هجومه ولم يرد. بمجرد أن أدرك "باسكال" أن "كرابيشكو" لن ينفعل ولن يرد الهجوم لأن دينه يمنعه، صفعه مرارًا وتكرارًا... وأخيرًا اندفع يركله بقدمه.

لم يهتز "كرابيشكو"، فتلك الصفعات والضربات لا تقارن بما تلقاه طوال حياته عند نهر "فاردار" في ضواحي "سكوبيه".لم يفهم

"كرابيشكو" ماذا يحدث، لكنه أدرك أن "باسكال" وبعض رجاله أتوا بدافع الواجب وكبَّلوا ذراعيه.

"كرابيشكو" رجلٌ قوي، يستطيع إسقاطهم جميعًا على الأرض بدفعةٍ من صدره الضخم. لم يبادلهم الهجوم لسببٍ ما. ربما ظن أن سوء التفاهم سينتهي بسرعة. وهو ما لم يحدث لسوء حظه. صاح:

- ما الذي فعلته؟

صدرت أصوات غاضبة من الجميع فلم يفهم منهم شيئًا، لكنه أصر على سؤاله. انهالت عليه الإجابات المتداخلة، فالتقط كلماتٍ متفرقة وحاول فهم ما يقال. في النهاية أدرك أنهم يظنونه لصًا.

فهم أن أموال "باسكال" قد سُرقت. إنها كل ثروته ومدخراته التي أراد استثمارها لشراء براميل عنبٍ جديدةٍ، ودفع رواتب العمال المرتزقة الذين يقومون بجمع العنب، ونقل العنب ليقوم عمالٌ آخرون بعصره في مكابس ضخمة.

- من يمكن أن يرتكب هذه الجريمة سوى هذا الضخم، هذا الحيوان الآدمي "كرابيشكو".

صرخ "باسكال":

- لم أشك في شخصٍ غيرك مطلقًا. والآن أخبرني أين كنت طوال اليوم؟

الشيء الوحيد الذي منع "باسكال" من الانقضاض على "كرابيشكو" وشد شعره هو ثقته التامة في قدرته على الإطاحة برقبته في أي لحظة.

أجاب "كرابيشكو":

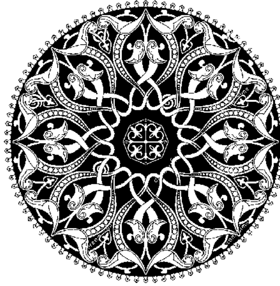
- ذهبت إلى الكنيسة!

- هـراء! إلى الكنيـسة! أنـت كـافرٌ، ملحـدٌ، ومجنـونٌ. أنـت لا تـؤمن بـالرب ولا بالمقدسات. والآن تكذب وتقول إنك ذهبت إلى الكنيسة؟ ولماذا ذهبت هنـاك أصلًا في يوم عمل؟

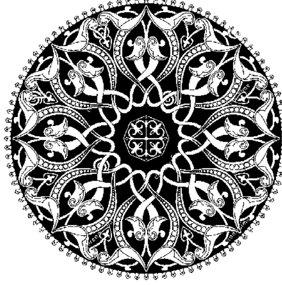
رد "كرابيشكو":

- ذهبت لرؤية الزجاج الملون.

من المؤكد أن الإجابة كانت مربكة تمامًا، فلم يتفوَّه أحـدهم بحـرف وتجمـدوا مـن الذهول. حتمًا ظنوا، أو بالأحرى اقتنعوا، أن "كرابيشكو" فقد عقله ولن يـستفيدوا منـه شيئًا.



16



صاح "باسكال":

- اتصلوا بالشرطة! اتصلوا بدائرة الأمن والجيش!

من الواضح أن كل موظفي الدولة قد تـم إبلاغهـم بـالأمر مـسبقًا. لأنـه في اللحظـة التي تفوّه فيها "باسكال" ظهرت القوات على باب "باسكال".

هكـذا ألقـوا "كرابيـشكو" في سـجنٍ سـيئ الـسمعة بجـوار بحـيرة "لـيمان" وهـو لم يتم عامه العشرين بعد. الويل لمن ينتهي بـه المطـاف هنـاك، كـما قـال الـشاعر "لـورد بايرون".

لم يمضِ الكثير حتى طلـب "باسـكال" نفـسه إطـلاق سراحـه، لحـسن أو سـوء حـظ "كرابيشكو". قال "باسكال" إن ما حدث كان نتيجة الخطأ والإهمال.

ماذا حدث حقًا؟

لدى "باسكال" عادة غريبة، وهي نقل مدخراته من مكانٍ لآخر بانتظام. إنه يفعل ذلك لاعتقاده أن اللصوص في كل مكان. وسيحمي ماله من تجارة العنب من السرقة وما إلى ذلك إذا خبَّأ المدخرات في أماكن مختلفة.

وهكذا ينقل باستمرارٍ ثروته بما فيها أمواله وذهبه وساعته الذهبية والمجوهرات التي لم يسمح لزوجته بارتدائها حتى لا تفقدها.

مرة يخبئها في العلية بين قوائم الخشب الجافة.

ومرة أخرى يحشرها بين برميلي نبيذٍ في القبو.

ومرة يدفنها في الفناء تحت جذور شجرة صنوبر.

وهكذا.

في الليلة التي سبقت الكارثة، فعل "باسكال" ما يفعله كل الملاك الكبار في ذلك الوقت؛ ثمل بشراهةٍ وكأن لديه معدة خنزير.

ربما تشبيهه بالخنزير ليس كافيًا. لقد ثمل وكأن لديه معدة ثور، ثم عاد إلى المنزل في الصباح التالي بروحٍ معنوية مرتفعة لينام وهو مخمورٌ وكريه الرائحة. وظل يخرج ريحًا ويتجشأ أنفاسًا نتنة تفوح بالكحول.

أيقظته زوجته في الصباح التالي لتبلغه أن الملح قد نفد، وأنها تحتاج إلى بعض المال لشراء المزيد. نهض "باسكال" بكسلٍ وطرد زوجته من الغرفة. ثم ذهب إلى المكان الذي أخفى فيه النقود آخر مرةٍ، لكن عندما فتش فيه... يا للهول!

لا أثر للنقود! تصبب عرقًا، ودار رأسه وكأنه سينخلع لولا أنه ظل يصرخ. وهكذا وقع اللوم كله على "كرابيشكو" كما هو الحال دومًا.

يجب الاعتراف أن ضمير "باسكال" أنبه بشدةٍ لاحقًا. ما حدث له كان أصعب كارثة قد تحل بالعقل البشري، إنه النسيان. لقد نسي ببساطة أين خبأ المال آخر مرة.

لقد نسي أين وضع المال ببساطة لأنه ينسى كثيرًا.

بعدما أرسل "كرابيشكو" إلى السجن، بدأ يفيق ويبحث باستماتة في كل بوصةٍ في أرضه، وفي كل الأماكن التي خبأ فيها أمواله سابقًا. لكن بلا فائدة.

بحث هنا! لا شيء!

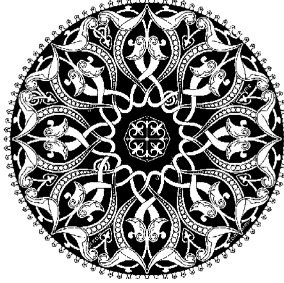
بحث هناك! لا شيء!

عندما أدرك أنه اتهم "كرابيشكو" زورًا، منعته كبرياؤه وكرامته كمالك المكان من الاعتراف بالحقيقة أمام الجميع. فهو سيضطر أولًا إلى الاعتراف بأنه يخبئ ماله باستمرار، وثانيًا بأنه ثمل لدرجة أنه نسي مكانه. لهذين السببين قام بحملة البحث في سريةٍ تامة.

أخيرًا، وجد صندوق المال والمجوهرات بالصدفة وهو يقضي حاجته في المرحاض الخارجي. كانت عيناه منتفختين، ورأسه يدور. عندها تذكَّر أنه وضع الصندوق في عدة أكياسٍ جلدية، ثم وضعه في خزَّان الصرف الصحي.

لهذا يقولون إن الرجل يفكر أفضل وأسرع حين يقضي حاجته أو حين يكون في الحمام.

17



أمضى "كرابيشكو" يومًا واحدًا في السجن.

لكن هذا اليوم أثَّر بشدةٍ في تطور نفسيته مستقبلًا. في الواقع، لم يستوعب تمامًا أين كان. استغل الفرصة لينفرد بنفسه ويرتب أفكاره بسرعة. أخرج "كرابيشكو" من جيبه قطع الزجاج الملون التي جمعها من خلف الكنيسة، ثم رتبها أمامه.

وضع الشظايا على الأرضية الحجرية.

هناك قطعٌ كثيرة حمراء اللون وحادة الزوايا، وقطعٌ صفراء منثنية الزوايا، وقطعٌ مغبرة بالدخان، وقطعٌ شفافة، وقطعٌ تشبه النجوم الصغيرة. تفحَّص "كرابيشكو" كل القطع وكأنه لم يرَ زجاجًا في حياته. حاول أن يزيل الطلاء عن سطحه، لكنه اكتشف أنه ليس مطليًا على الإطلاق. اللون داخل الزجاج نفسه. أغلق عينيه وفكَّر في وادي "فاردار" وفي النجوم الساطعة المتوهجة التي يمكن رؤيتها في وضح النهار.

اندهش حين فتح عينيه فرأى القطعة التي تحمل رأس الحصان!

وليس رأس حصانًا عاديًا، بل حصان ضخم وطويل وحاد النظرات. إنه حصانٌ جبلي، حصانٌ بري.

تتكون الرأس من عشر قطعٍ مختلفة الأحجام والألوان. تبدو عن بعدٍ ذات لونٍ بني داكن مع ظلالٍ بنفسجية وصفراء.

قال "كرابيشكو" لنفسه: "مذهل! مذهل بالفعل!".

ثم وضع الرأس جانبًا وأخذ يكوِّن صورة شمسٍ وأشعتها وقال لنفسه: "هذا رائع الجمال! أقسم بالقديس "تريفون" وبستانييه السكارى أن هذه معجزة".

بعد ذلك أصبح كل شيءٍ كاللعبة. فكوَّن صورة فسيفساء صغيرة، ثم نظر إليها قليلًا ثم غيَّرها وبدَّل بها صورةً أخرى. غمرته الأفكار دون أن يعرف من أين أتت أو كيف.

الكثير من الأشياء نشأت وانهارت بهذه الطريقة.

بيوتٌ حمراء صغيرة بحدائق واسعة.

رجلٌ أصفر بثوبٍ صيني.

سكين زرقاء حادة.

دبٌ يلمع كالنحاس.

نهرٌ أخضر يروي الحقول.

مدينةٌ كاملة بأسقفٍ منخفضةٍ ومهملة.

ذكرته اللعبة بقراءة الطالع في السُحب، إنها لعبةٌ اعتـاد أن يلعبهـا مـع أصـدقائه في صباه. كانوا يستلقون على العشب أعلى المـروج، ويحـدقّون في الـسحاب. ثـم يتخيلـون شخصياتٍ. كل حسب قوة مخيلته. هذا هو ما كان يفعله "كرابيشكو"، يلعب. وعنـدما نظر إلى القطع الزجاجية مرةً ثانية، لم تبدُ أشكالها مميـزة، لكنـه اسـتمتع بقدرتـه عـلى رؤية صور تنشأ من العدم.

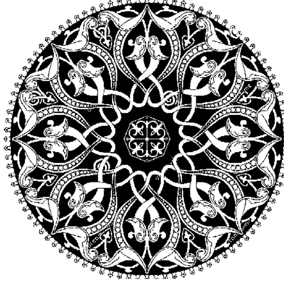
بدأ يطور أسلوبه بالتدريج. لم يعد يرتبهم ليكوّن شـكلًا معينًـا، بـل التقطهـا بيديـه وهزَّها ثم ألقاها على الأرض. وهكذا استطاع تكوين الشكل الذي تخيله في رأسه.

قال لنفسه: "سأسافر إلى مكانٍ ما". ثم التقط الشظايا مجددًا وهزها ثم ألقاها على الأرض الحجرية. ظهر جبلٌ حادٌ ومرتفع.

توقف للحظة وتأمل القطع الزجاجيـة قلـيلًا، ثـم قـال لنفـسه إن هـذا دليـلٌ عـلى النجاح.

"هذا يعني نجاحًا. إنه نجاحٌ بلا شك، لكني لا أعرف أي نوعٍ من النجاح".

18



طالب "باسكال" بأمورٍ محددة.

الولاء!

الأمانة!

إتقان اللغة (الألمانية أو الفرنسية)!

النظافة الشديدة!

إلخ.

أمر "باسكال" بهذا مستخدمًا سلطته كمالك المكـان بعـد إطـلاق سراح "كرابيـشكو" بقليل.

قال:

- هل أطلب الكثير؟

- لا.

رفضت كرامة "باسكال" وكبرياؤه طلب السماح من عاملٍ بسيط. لهذا السبب عندما عاد "كرابيشكو" إلى المنزل، أخبره "باسكال" أن كل شيءٍ على ما يرام وأن عليه توخي الحذر مستقبلًا. لأن العمل عند "باسكال" يتطلب معاييرٍ صارمة، ومن بينهما الأوامر السابق ذكرها.

إذا حقق هذه الشروط، يستطيع "كرابيشكو" البقاء معه بصفته خادمًا بارعًا في استخدام مقصات التشذيب. لا أكثر ولا أقل.

"Adios!" (وداعًا!)

قال أحد العمال:

- "adios" هي كلمةٌ إيطالية!

أمره "باسكال" أن يخرس وهو ما زال يشعر بالدوار من أثر الشرب.

19



شرب الجميع كمًّا مهولًا من النبيذ هذا العام.

لم يهتم صناع الخمر مطلقًا إذا ما أصبحت الحماقة موضة أو إذا ما تم افتتاح قناة السويس أم لا أو إذا ما اندلعت حربٌ بين فرنسا وألمانيا. لم يكترثوا لأي شيءٍ سوى صناعة الخمر.

هكذا كان الحال. صنعوا الكثير من النبيذ وشربوه.

يُقال إن "كرابيشكو" شرب ذات مرةٍ ثلاثة براميل من الـ"براندي" وخمسة براميل من النبيذ، إن لم يكن أكثر. لقد اكتسب هذه القدرة منذ صغره حين اشتهر بـ"الولد شارب النبيذ".

أمَّا الحقيقة التي عززت الرواية هي أن "كرابيشكو" لم يدرك قط الكمية التي شربها في تلك المناسبة، خلافًا لأي سلوكٍ مسيحي عادي. بعد

عدة أيامٍ شعر بصداعٍ من أثر الشرب، وتذكَّر حدثًا بسيطًا. لكنه لم يكن واثقًا إذا ما كان حلمًا أم واقعًا.

كانت ذكرى عن فتاة حافية القدمين وسط حقول العنب، تعصر العنب الناضج في برميلٍ خشبي.

ترتدي فستانًا أبيض مرفوعًا فوق ركبتيها.

يتطاير شعرها بنسيم جبال الألب العليل.

كانت تضحك، تضحك على "كرابيشكو". صعد إليها وأخرجها من برميل العصر، ثم مددها على العشب جوار البرميل. بعد ذلك باعد ما بين ساقيها بأقصى ما يستطيع.

تذكَّر "كرابيشكو" بوضوحٍ أن تلك الفتاة كانت ترتدي ثيابًا داخلية، ففكر "هذا غير معتاد!". كانت بدينة ومشعرة، لكنه لم يبالِ. بل بالعكس، كان يحتاج إليها أن تكون كذلك لينفذ غرضه.

بدأ "كرابيشكو" يحشوها بالعنب الناضج. تمامًا مثلما نحشو الذبيحة.

حشاها حتى لم تستطع التوقف عن الضحك. وعندما عجز عن إضافة حبة عنبٍ أخرى، أغلق ساقيها وضم ركبتيها وأمرها أن تقف. نهضت بمرحٍ وإثارة، ثم أمرها أن تنخفض، ثم تقف وتنخفض مرارًا وتكرارًا. وأخيرًا أمرها أن تصعد على المائدة الخشبية، حيث طعام العمال.

اجتمع السكارى الفرحون حول المرأة واندهشوا لرؤيتها واقفة مباعدة بين ساقيها، ويسيل خيط رفيع من عصير العنب والنبيذ على فخذيها.

زادت دهشتهم حين وضع "كرابيشكو" شفتيه أسـفل سـاقي الفتـاة صـانعة النبيـذ، وبدأ يشرب الخمر السائل على ركبتيها.

بعد ذلك دعا الآخرين ليشاركوه الشراب واحتفلوا بصخبٍ كبير.



20



أمر "باسكال" "كرابيشكو" قائلًا:

- ستشتري عشرات الزجاجات من سيد "أوتو"! إنه ملحدٌ، لكن بضاعته ممتازة.

يا له من أمرٍ مصيري في حياة "كرابيشكو"!

شخصٌ آخر كان مسؤولًا عن شراء الزجاجات، أمَّا الآن أصبح "كرابيشكو" المسؤول عن الذهاب إلى ورشة السيد "أوتو"، حيث تنصهر الشموس.

لاحقًا ظل يتذكر هذا الأمر طوال حياته ويفكِّر فيه ويقلبه من جميع النواحي على أمل اكتشاف القوى العجيبة التي غيرت حياته.

تلقَّى "كرابيشكو" العديد من الأوامر طوال عمره.

لم يرفض أحدها قط خوفًا من العقاب، على الرغم من أن بعض الأوامر تستحق الرفض، لكنه لم يرفض قط. عندما بدأ سرًا يجمع عملاتٍ فضية

للعودة إلى وطنه والهرب من هذه الحياة الشاقة. قال لنفسه: "صبراً يا "كرابيشكو"! هكذا هو الحال دومًا. لقد قاومت بما فيه الكفاية، والآن عليك القبول!". تلألأت آلاف القطع الزجاجية في خياله الذي اصطبغ باللون الأحمر والأصفر. لم ينتظر ليكرر سيده الأمر، وانطلق إلى ورشة الحرفي.

اهتزت ركبتاه وهو في الطريق دون أن يعرف السبب.

قال:

- صباح الخير!

ثم شرح سبب مجيئه.

وقف الحرفي وذهب إلى "كرابيشكو".

كان يتفحص فرن الزجاج ويتفقده ليرى إذا كان عليه زيادة النار أم لا. ما زال الشريط الأحمر متدلى على ظهره ومربوطًا في شعره على هيئة ذيل فرس. هناك عاملان فقط يشتغلان على الفرن. توقفا لوهلةٍ عن النفخ في النار بالمواسير الحديدية الطويلة بأفواههم الضخمة، وأمعنا النظر في "كرابيشكو".

نظر الحرفي الخبير بثباتٍ إليه ثم اتسعت عيناه ولم ينطق بكلمة. نظر إلى صدره وتوتر.

مد يده اليمنى على صدر "كرابيشكو" وقال:

- نفس صحي! هناك نفس صحي!

استمر يتحسس ثم قال:

- نفس صحي! العالم لا يحتاج سوى إلى نفس رائع وصحي وقوي! هذا النفس الصادر من صدرٍ قوي وضخم مثل صدرك. النفس الصحي هو الشيء الذي يخلق الفن. لا يوجد فن من دون نفسٍ صحي في هذا العالم.

هذه هي كلمات الحرفي الخبير لـ"كرابيشكو" وهو ينظر إليه، ثم مرر أصابعه المحترقة على صدره. كان قميص "كرابيشكو" قذرًا ومبللًا بالعرق وملطخًا بالنبيذ وقشور العنب. لم يتسن له الوقت لتغيير ثيابه.

سأله الحرفي الخبير بعينين متسعتين:

- هل تعرف كيف بدأ الخلق أيها الشاب؟

رد "كرابيشكو" بحرج:

- لا أعرف.

- في البداية لم يوجد في العالم سوى حمم بركانية من الفضاء. لم يكن هناك شيء؛ لا بحار، لا يابسة، لا أنهار، لا حيوانات، لا طيور. لم يكن هناك بشرٌ أيضًا. وفي لحظة إلهام نفخ الرب في الحمم مثلما ننفخ في النار بالمواسير الحديدية. فخلق ما يشبه كرةً زجاجية سمَّاها الأرض. وضع فيها البحار والمحيطات واليابسة والحيوانات والطيور. وخلق الناس بالأسلوب نفسه، النفخ. عندها دبَّت الحياة في العالم، لكن الرب لم يكن وحيدًا في الكون...

توقف "أوتو" عن الكلام. بدا واضحًا أنه لا يرغب في الاستمرار، لأنه خاف ألا تعجب النهاية "كرابيشكو" الذي استمع له بفمٍ مفتوح وعينين متسعتين بفضول طوال قصة خلق العالم.

أضاف الحرفي:

- الرب، أو أيًا كان اسمه، ما كان سيخلق العالم من دون نفس، صحيح؟

صاح "كرابيشكو" بدهشة:

- بالطبع!

وهو ما جعل العاملين الآخرين يلكزان بعضهما.

- لا أريد أن يُساء فهمي، لكن عملنا يشبه كثيرًا - إن لم يكن تمامًا، عمل الرب - أو أيًا كان اسمه - في خلق العالم. هو ونحن نصنع أشياءَ من الزجاج. يعتمد عملنا وعمله على النفس. إن عجزنا عن التنفس، سنعجز عن خلق الحياة والعوالم الجميلة. ستكون النتيجة مجرد أشياء ميتة، زجاجات صمّاء تلمسها الشفاه الميتة والملامح الجامدة لأسيادنا وأمرائنا ونبلائنا.

قال الحرفي لـ"كرابيشكو" إنه سيكتفي بالمقدمة وسينتقل مباشرةً إلى خاتمة كلامه، بغض النظر من أن السؤال الذي سيسأله لـ"كرابيشكو" ربما يبدو متسرعًا وسابقًا لأوانه. لكن سنوات خبرته وقدرته على الحكم بدقةٍ على قدرات الناس الروحية والنفسية أخبرته أن التسرع لا علاقة له بالأمر.

واصل الحرفي كلامه:

- لن أطيل الحديث أكثر أيها الشاب المدهش، ولن أسألك من أنت أو من أين أتيت. لقد أدهشني صدرك الضخم الذي يحمل نفسًا قويًا وصحيًا. لذلك سأسألك: "هل تحب أن تضيف معنى لحياتك؟".

لم يفهم "كرابيشكو" ماذا يريد الحرفي الخبير، لكن فكرة إضافة معنى لحياته بدت مثيرة للاهتمام. قرر أن يعترف ويخبره بصدقٍ أنه لم يفهم حرفًا. سأله "أوتو":

- هل ترغب في تغيير مهنتك إلى مهنةٍ أكثر نبلًا وأفضل؟ وأن تكتسب خبراتٍ أكثر وتسافر إلى بلدانٍ كثيرة، وفي النهاية يحيط بك المعجبون من الرجال والنساء؟

رد "كرابيشكو" بانفعال:

- من يرفض عرضًا كهذا؟!

- إذًا سأطلب منك أن تنسى كل ما فعلته حتى الآن، وتهجر كل شيءٍ لتنضم إليّ في عالمي السحري، حيث ستتعلم أشياءَ لم تعرف عنها مطلقًا، وسيتواصل عقلك مع مبادئ روحك...

- سيدي، لقد أتيت من مكانٍ حيث...

- لا أهتم... لا أهتم بأي شيء... فالأشخاص ذوو الإلهام ليس لديهم ماضٍ أو مستقبل خاص بهم، إنهم مخلوقات كونية.. تعال لنجري اختبارًا.

بدأ العاملان يضحكان بغرابة. شاهدا ما يحدث مثل جمهور السيرك، ظلا يسخران من كل شيء. لاحظ "كرابيشكو" هذا وتساءل إن كانا يريانه أضحوكة. أخذه الحرفي الخبير إلى فرن الصهر ليواصل حديثه:

- أظنك سمعت الكثير عنا وعني. إن كانت حكاياتٍ بذيئة ومخيفـة، انـسها. أمـا إن كانت حكاياتٍ مرحة ولطيفة، وتضفي عظمةً وآفاقًا جمالية واسـعة المـدى، إذًا صـدقها لأنها حقيقية.

تمنَّى "كرابيشكو" أن يوضح أنه لا يعرف الحرفي ولم يسمع عنه، ولكـن الحـرفي كـان يتحدث ويثرثر بلا توقف فلم يمنحه فرصةً للحديث.

- لا تصدِّق الذين يسخرون من ورشتنا الشهيرة "ماسـتر أوتـو للزجـاج الروحـاني". لا تصدِّق من يقارنونا بالشياطين لأننـا لا نهـدر طاقتنـا في صـنع زجاجـات الخمـر. هـؤلاء الأشخاص يعتبروننا حالمين لأننا نريد إعادة المجد الفني لصناعة الزجاج هنا والآن.

تحدث "أوتو" وهو يلوح بيديه بفخرٍ وحماس أمام "كرابيشكو" الحائر. أثناء حديثه أخذ ماسورة حديدية من أحد العاملين، وصعد على صندوقٍ خشبي ليصل أعـلى الفـرن المشتعل. ثم أدخل طرف الماسورة فيه وقال لـ"كرابيشكو":

- والآن تخيَّل شيئًا تحبه أو تكرهه أكثر من أي شيءٍ آخر. تخيل بقـوة ودون تحيـز. وعند إشارتي املأ صدرك بالهواء ثم انفخ في هذه الماسورة. مفهوم؟

تحمَّس "كرابيشكو" وتأثَّر بكـل مـا حولـه لدرجـة أنـه ارتبـك ولم يقـل شـيئًا سـوى الموافقة. ثم أغلق عينيه وحاول أن يتخيل شيئًا ما. لكنـه لم يـستطع. كـان عقلـه فارغًـا كالبرميل الأجوف. بعد ذلك سحب نفسًا عميقًا إلى صدره الضخم. لم يسحب نفسًا كهذا منذ كان صغيراً ويتنافس مع أصحابه أثناء مسابقات الغوص، وقد فـاز بكـل المنافـسات بالطبع.

قال "أوتو":

- والآن انفخ بأقصى طاقتك.

نفخ "كرابيشكو" في الماسورة بكل قوته، ولاحظ قطعة زجاجٍ رخوة وعجيبة تتـشكل أمام ناظريه.

صاح "أوتو":

- انفخ!

أراد "كرابيشكو" أن يقول "أنا أنفخ!"، لكنه لم يستطع لأن فمه كان مشغولًا بالنفخ.

- انفخ بقوةٍ أكبر!

أراد أن يقول "أنا أنفخ بقوةٍ أكبر!"، بينما يشاهد الكتلة الدخانية تتحـول بالتـدريج إلى كرةٍ زجاجية... ثم بدأ يدرك أن نفسه يتقطع ورأسه يدور.

وفجأة أغمى عليه...

21



ذهب "كرابيشكو" إلى القمر.

كان القمر ناعمًا وزجاجيًا.

وكان يشع كألف شمعة.

انزلق "كرابيشكو" على سطحه وحاول أن يوقف نفسه عن الانزلاق. كان يشبه حشرةً تطير حول مصباحٍ زيتي.

لديه أظفارٌ حادة وطويلة، فحاول التشبث بسطح القمر الزجاجي.

خدش سطحه فصدر صوت مزعج ومؤلم لم يحتمله.

غطى أذنيه بيديه كي لا يسمعه وبدأ بالانزلاق مجددًا. عندما وصل إلى حافة القمر بدأ بالسقوط.

انتفض قلبه من الخوف، بينما شعر بنفسه وهو يسقط إلى الأرض بسرعةٍ مهولة.

قال لنفسه: "سـأموت حـتمًا، سـأتحطم. يـا إلهـي! دعنـي أقـع في نهـر "فـاردار" كي أنجو!".

ثم استعاد وعيه.



22



صاح "أوتو" وهو يربت على خدي "كرابيشكو" ليفيق:

- لقد بالغت في النفخ!

حل الغروب حين أفاق تمامًا.

سأله "أوتو" بلهفة:

- أخبرنا ماذا رأيت!

أخبره "كرابيشكو" عمَّا رأى، فقال "أوتو":

- أيها الشاب، لديك نفسٌ يغير العالم. لقد ساعدك على رؤية أحلام أسلافك منذ مئات السنين. لديك النفس والقوة! تحتاج إلى شخص يعلمك كيفية الاستفادة من مواهبك، وهذا الشخص هو أنا. لو نجحنا، سيصنع نفسك وزجاجي المعجزات. اقبل عرضي، وتعال إلى هنا في الصباح الباكر. سنرحل إلى "تشالو"، إلى ورشتنا الفعلية.

سأله "كرابيشكو":

- أليست هذه هي ورشتك؟

- بالطبع لا! إنها ورشةٌ مؤقتة، تساعدنا فقط على تلبية احتياجات السكان المحليين. نبقى هنا شهرًا أو شهرين فقط في السنة.

هذا ما قاله "أوتو" لـ"كرابيشكو" قبل أن يغادر، كما أخبره بالراتب الذي سيتقاضاه ووافق عليه.

ظل "كرابيشكو" يردد عرض "أوتو" لنفسه وهو عائدٌ للمنزل: "هل أراد مني أن أضيف معنى جديدًا لحياته؟". تساءل ماذا تعني رؤية القمر وكيف سيشرح الأمر لـ"باسكال".

لكن ليس عليه القلق حيال ذلك.



23



توقف الزمن.

أو جُن. لا فرق.

عندما عاد إلى "باسكال" وجد المشهد السابق ذاته في الفناء. النساء يركضن بذعر، والرجال يجذبون شعورهم من الجنون، بينما يجوب "باسكال" الفناء وهو يصرخ:

- لصوص! سارقون! أمسكوا اللص!

وبالطبع عندما لمح "كرابيشكو" اغتنم الفرصة الذهبية ليلقي كل اللوم عليه. ثم صاح مناديًا القوات والجيش والحرس الملكي... حتى إنه ذكر اسم البابا. وأمرهم جميعًا بالقبض على "كرابيشكو".

لحسن الحظ لم يصدقه أحدهم هذه المرة، ولا القوات ولا الجيش.

أسقط "كرابيشكو" الزجاجات من يديه. اشتد غضب "باسكال" عندما رأى معظمها يتحطم. أعلن "كرابيشكو" بكبرياء:

- سأرحل.

- سترحل؟ حسنًا، ستتعفن في هذا البلد من دوني. ماذا يمكنك أن تفعل غير العبث بمقصاتك؟ وكيف تنوي الرحيل، إن سمحت لي بالسؤال؟ أين ستذهب ومن سيرضى بشخصٍ صعب المراس مثلك؟

- عذرًا؟

- صعب المراس.

- ماذا يعني هذا؟

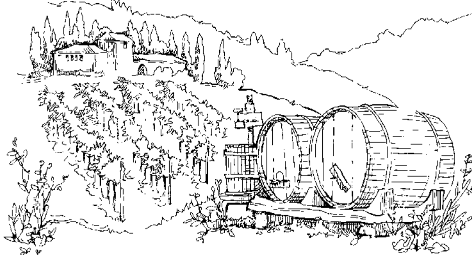
- يعني أنك لا تملك أدنى المعايير اللازمة للعمل في بروسيا والنمسا وإيطاليا وسويسرا وخلافه، أو في أي بلدٍ آخر في أوروبا.

- سأذهب إلى ورشة "أوتو" في "تشالو".

- ها... عظيم! ستعمل مع ملحد! ستحظى بوقتٍ ممتعٍ هناك يا فتى! أنت لا تعرف شيئًا عن هذا الرجل. يقولون إنه يشارك في أعمالٍ شريرة، فاحذر! أنت وحدك في هذا البلد. بعد ذلك طلب منه "كرابيشكو" أجره على عمله. رفض "باسكال" مطلبه بكياسة، وذكره بأنه مدينٌ له بالأربع عشرة قطعةً ذهبية التي دفعها لـ"جورجز".

تشاحنا قليلًا قبل أن يذهب "كرابيشكو" ليحزم أمتعته.

24



تأخَّر الوقت بالفعل. غربت الشمس على قمم الجبال وسط غابات الصنوبر. حل الظلام على حقول العنب. لا يُسمع سوى رفرفة طيرٍ هنا وهناك، ينقر حبات العنب الأخيرة. تصالح الأعداء المتخاصمون. استعد أهالي القرى ورهبان الكنائس للنوم. غسل العمَّال الكادحون أقدامهم كريهة الرائحة ونظَّفوا ما بين أصابعهم من الرمال. تخمرت براميل النبيذ. حامت حشرات النبيذ فوق البحيرة. غنَّى السكارى بصوتٍ عالٍ. لم تكن الشوارع أو القرى على حالها تلك الليلة. تحولت البحيرة تدريجيًا من بيضاء إلى حمراء كالنبيذ. كان كل شيءٍ هادئًا حينما اقترب "كرابيشكو" ببطءٍ من غرفته الصغيرة التي تحتوي على سريرٍ خشبي صغير. من المفترض أن يستعد لانتقاله من سيدٍ إلى آخر غدًا. لكن ماذا يفعل حين لا يملك أمتعة ليحزمها؟ مقصاته وسكينه وأدواته كانت في حزامه بالفعل، وهذا ما يهم. قرر أن يأخذ معه فقط ذكرياته وأفكاره، وربما خيالاته أيضًا. نعم، خيالاته بالطبع.

25



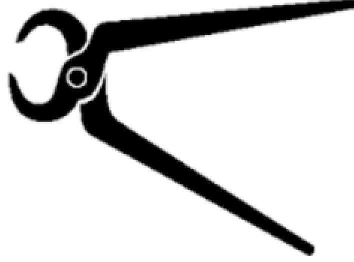
الدرس الأول. أشهر دروس "أوتو" هي تـأثير الطاقـة الكونيـة عـلى الـروح البـشرية، وبالتالي على شكل ووظيفة المصنوعات الزجاجية.

- مع خالص احترامي وتقديري لكل من يشاركني أفكاري ولأساتذتي أيضًا، أعتقـد أن الكلام النظري وحده لـيس كافيًـا لـصناعة قطعـةٍ زجاجيـة رقيقـة، لكـن خالـدة، نقيـة وصافية، لامعة وبراقة. أهم خطوةٍ هي تكريس معظـم الوقـت للتـدريب. نعـرف مـن أسلافنا، وأحيانًا من معاصرينا، أننا جزءٌ من طاقةٍ كونية بالفعل. يفترض اسـتخدام هـذه الطاقة بالفعل لأغراضٍ علمية، لكن يجب استخدامها أساسًا في الفن. لكن سواء أردنا أم لا، علينا الاعتراف أن نظرياتنا الغربية - وخاصة الحديثة منها - عليها العودة إلى أصولها القومية، لكن عليها أيضًا التطلع إلى الإنجازات الثقافية في العالم أجمع. هناك عدد كبـير من الناس يعتقد أنه علينا متابعة خبرات الآخرين والاستفادة من حضارات العـالم. مـن بينهم صديقٌ عزيزٌ عليّ، إنه فيلسوفٌ لن أذكـر اسـمه الآن. خـذ الهنـد كمثـال! ولِمَ لا؟ لماذا لا نطبق فلسفتهم على فلسفتنا أو العكس؟ وهكذا سنحقق نتـائج مرضـية أو غـير

متوقعة؟ أظن من تعبير وجهك أنك لم تفهـم تمامًـا مـا أقولـه. سـأحاول تبـسيط الأمـور قليلًا. توجد طاقة كونية ننتمي إليهـا. لا نـشعر بهـا، وبالتـالي لا يمكننـا اسـتخدامها. إن نجحنا في ذلك، سنلاحظ أن إدراكنا وعقلنا وجسدنا وروحنا بـالأخص سـيكونون وسـائل اتصال بين هذه الطاقة والأجساد المادية التي تحتويها. ألم تفهم بعد؟ سأفسر الأمر أكثر إذًا! من الضروري أن نمـارس بعـض الطقـوس الدينيـة الـشرقية، لأنهـا أكـثر عمليـة مـن طقوسنا غـير الدينيـة، وسـتساعدنا عـلى أداء أدوارنـا كوسـائل اتـصال. إن كانـت هـذه الطقوس الدينية تستخدم تقنية تنفس معينـة يمكنهـا أن تـساعدنا في تـشكيل الزجـاج، فلم لا نستغلها لصالحنا إذًا؟ علينا التركيز على الطاقـة الكونيـة التـي يمكننـا امتـصاصها ونقلها إلى الزجاج بمـساعدة تقنيـات التأمـل المختلفـة. واضـح؟ لـيس بعـد؟ حـسنًا إذًا، سأشرح أكثر. علينا ممارسة تطبيقات تطهـير الـروح التـي مارسـها ببراعـة خـبراء اليوجـا القدماء في الهند منذ آلاف السنين. بهذا نكون مخلوقاتٍ نقية تصنع أنقى زجاجٍ ممكن. وإلا كيف سنفرق بين الزجاج العادي وبين الزجاج الذي يجتمع فيه نور وظـلام الكـون، وصمته وألحانه إن أحببت؟ بالطبع يمكننا فعل ذلك إن سمحنا لجودة هذا الزجاج بـأن تبهر عقولنا وعيوننا وأرواحنا، وإن شعرنا بالبهجة الفنية التي تشع منه. من أجـل ذلـك لا يجب علينا الاكتفاء بعقلٍ صافٍ وحسب، بل أيضًا بنفسٍ نقي وعميق. سأناقش هـذا الدرس معك فيما بعد. اليوم الـذي سـنعتاد فيـه عـلى هـذه التقنيـات لـيس ببعيـد. في القرون التالية سنقدر على مزج العناصر لنحصل على غدٍ أفضل. صحيح يا "كرابيشكو"؟

- ... نعم!

26



النفس أصل الحياة!

هذا هو كل ما تذكره "كرابيشكو" في اليوم التالي وهو يكرر كلام "أوتو"، بينما ينفخ في النار بخدودٍ منتفخة وصدرٍ منتفخ، ويراقب بعينين نصف مغمضتين الزجاج المنصهر وهو يتمدد بثباتٍ ليتحول إلى بالون.

- النفس أصل الحياة! بغض النظر عن التقنية التي تستخدمها، يجب أن يكون نفسك نظيفًا وفارغًا وحرًا من التفكير..

ثم أضاف:

- بغض النظر عن التقنية، يجب أن يكون النفس نقيًّا وصافيًا وخاليًا من الأفكار.

تضخم الزجاج المنصهر بحلول الوقت الذي خلت فيه رئتا "كرابيشكو" من الهواء. تلألأت الكتلة المنصهرة بمختلف الألوان. جميع

ألوان الشمس المنصهرة؛ صفراء كالجحيم، وخضراء كـالنعيم، ورماديـة كـالرب، وحمـراء كالجمر التي ولدت منه، وزرقاء كسماء الصيف،... وقرمزية.. قرمزية تمامًا.

عندما نفد هواء رئتيه، وتقلـص صـدره إلى صـدر طفـلٍ صـغير، وتقطعـت أنفاسـه، أسرع إليه "فريتز" و"ميليفيوري" وبـدآ في تـشكيل الكتلـة الزجاجيـة بكماشـات صـلبة ضخمة، بينما يحرك "كرابيشكو" الماسورة الحديدية.

صاح "أوتو":

- أحسنت! أحسنت! لم يتمكن أحدٌ من صهر كتلةٍ زجاجية تشبه التفاحة مثل هذه قط! لا أحد! أحسنت.

في تلك اللحظة تقدَّم "كرابيشكو" بسعادة وصرَّح قائلًا للمرة الأولى:

- تنتقل تجربة الإنسان إلى المـادة، بيـنما يـنفخ في الكتلـة المنـصهرة. وعنـدما تـصل المادة إلى شكلها النهائي، ستحتفظ بجزءٍ من نفس صانعها إلى الأبد.

قال "أوتو" بانفعال:

- وكأنه قرأ أفكاري تمامًا! لا تنس أبدًا أنك تنقل جـزءًا مـن روحـك وأفكـارك خـلال نفسك. لا تنس أبدًا!

واصل "كرابيشكو" توضيح أفكاره:

- في هذه الحالة، إن تخيلت شكل طيرٍ فستكتسب المادة في النهاية خـصائص الطـير أو على الأقل ستتمنى الطـيران، سـتعتزم الطـيران.. سـتحلم بـالطيران. حتـى لـو لم يكـن شكلها الخارجي يشبه الطير.

صاح "أوتو" وهو يساعد العاملين في تشكيل الزجاج:

- أحسنت! كلامك واضحٌ تمامًا! وماذا أيضًا؟ أخبرنا.

- لهذا السبب من الأفضل للشخص أن ينفخ في الزجاج، بينما يتخيل طيرًا. لا يجب أن يصنع زجاجات العقاقير، بل الطيور.

- ممتاز... هيا، استمر!

- لا توجد حقيقية أعظم من هذه. إن أراد رجلٌ أن يصنع كأسًا، إذًا فليتخيل كأسًا أو فتاة صغيرة تشرب مياهًا نظيفة من كأس. وهكذا يتخذ الزجاج هيئة الكأس كما تخيلها الصانع.

- رائع! واصل حديثك.

- إن عجز الصانع عن تخيل شيئًا أثناء النفخ، إذًا لن تنتقل أي أفكارٍ إلى الزجاج، بل ستكون طاقةً صافية وحسب. وفي هذه الحالة وبغض النظر عن الغرض منه، ربما يكتسب الزجاج قدراتٍ شفائية!

قال "أوتو" إلى "كرابيشكو":

- هذا مذهل! لم أتوقع هذا منك. أنت فيلسوفٌ بالفطرة. يحيا "كرابيشكو"! ويحيا صدره الضخم! وليحيا معلمه أيضًا بالطبع.

اعترض "كرابيشكو" بحزنٍ قائلًا:

- لكن...

- ماذا؟

- ألا نتدخل في عمل الرب هكذا؟

- هذه بالضبط وظيفة الفن!

- فهمت...

تعجَّب "كرابيشكو" من حديثه، فهو لم يتمكن قط من التعبير عن أفكاره بالمقدونية التي هي لغته الأم. على أي حال، فكرته الأخيرة بخصوص تدخله في عمل الـرب أخافتـه نوعًا ما، وبدأ يشعر بسوء الخاتمة. بمجرد أن غادر "أوتو"، تحدث "ميليفيـوري" ووقـف "فريتز" بجواره مصدقًا على كلامه:

- أنت! "خرابو" أو أيًا كان اسمك! مـع كـل احترامـي، أنـا وهـذا الـسيد بجـواري لا نرغب بمصادقتك أبدًا. وأريد إبلاغك أننا ننوي ضربك بشدة. ليس إلى حد الموت، لكننـا سنصيب جسدك ببعض الإصابات الخفيفة.

أمسك "كرابيشكو" بسرعةٍ بمقصيِّ البستنة المعلقين في حزامه اسـتعدادًا للـدفاع عـن نفسه قبل أن يتساءل عن السبب. عندما رأى "ميليفيوري" بادرته أضاف:

- أنـا أمـزح بـالطبع! لكـن أنـا وزمـيلي كنـا نريـد أن نتأكـد مـن أن الروايـات التـي سمعناها عنك في كل مكان صحيحة.

- أي قصص؟

- إنك لست سوى بلطجي عادي.

27



ابنة السيد "أوتو"، "ماندالينا".

لم تكن بدينة أو نحيفة، ولا طويلة أو قصيرة، ولا صامتة أو ثرثارة.

باختصار، إنها جميلة.

أحيانًا تتمشى في الفناء وتحضر الماء للعمال، وأحيانًا تتجول في الحديقة. من الغريب أنها لا تنظر إلا أمامها فقط، لا يمينًا ولا يسارًا. لم يكن "كرابيشكو" يراقبها، لكنه حين يلمحها يظن أن كل النساء كذلك ولا داعي للعجب.

بأي حال، يقوم "كرابيشكو" في استراحته بتقييم "ماندالينا" على مقياسٍ من واحد إلى خمسة كالتالي:

الصمت: 4

الثرثرة: 3

الطول: 3

القصر: 4

النحافة: 4

البدانة: 4

بينما يقيمها بهذه الطريقة أدرك بدهشةٍ أنه لم يعطها خمسة أبدًا.

وبناءً على تقييمه ورأي الآخرين بها، تشجع "كرابيشكو" على التفكير في محاولة التحدث إليها عاجلًا أو آجلًا.

ما شجعه أيضًا هو أن مجموع درجات صفاتها الإيجابية أعلى من متوسط درجاتها السلبية، لم يستطع "كرابيشكو" حساب متوسط درجاتها السلبية، لذلك استعان بمدرس حسابٍ من البلدة.

لكن كيف خطر على بال "كرابيشكو" تقييم تلك الشابة بهذه الطريقة؟ وأخيرًا، هل سأل نفسه إن كان هناك من يقيمه؟ لو صحيح، فأي الصفات ستكون الغالبة، الإيجابية أم السلبية؟

هناك نساءٌ أخريات في فناء "أوتو"، وربما يكن أجمل من "ماندالينا". لكن "كرابيشكو" لم يلحظ أبدًا.

تقييم الفتيات كان لعبةً يتسلى بها حين يكون متفرغًا أو حين يكون في الكنيسة يتأمل الزجاج الملون الجميل (الذي عرف اسمه الآن).

تنظر "ماندالينا" أمامها فقط. إلى جانب ذلك، لا يجرؤ أحد العمال على التحدث إليها خوفًا من الطرد.

لكنها تجرؤ.

لم يكن "فريتز" و"ميليفيوري" يتجاهلانها، لكنهما يهتمان بمستقبلهما أكثر.

احذر! فـ"جوسا راجوسا" يراقبك!

كانت شقراء بعينين زرقاوان! بدت طيفًا سماويًا مقارنةً بهؤلاء العمال البؤساء الذين يغطيهم الشحم ويعملون على صهر الزجاج في الفرن.

بسبب هذه الهالة المشعة التي تظهر حولها، لقبّها "كرابيشكو" بالقديسة، القديسة "ماندالينا". لكنه لم يتحدث إليها بعد.

ذات يومٍ كان "كرابيشكو" يعبر الساحة بدلوين مليئين بالماء أو السيليكون (أو أيًا يكن)، وتعثرت "ماندالينا" بحجرٍ وكادت تسقط.

كالعادة كان بطلنا "كرابيشكو" هناك في اللحظة المناسبة ليمسكها. لكنه لم يمسك يدها أو خسرها، بل منطقة أسفل قليلًا عمَّا هو معتاد إمساكه بالنسبة لفتاة تسقط. بدلًا من ظهرها أو خصرها، أمسكها مباشرةً من بين ساقيها.

قد ترجع هذه الحادثة لحماقته، لكن من يعرف "كرابيشكو" جيدًا يعرف أنه ليس أحمقًا أبدًا. من يعرفه سيقول إن هذه المسكة متعمدة إلى حدٍ ما، وأكثر دقةٍ من كونها مصادفة.

اندهش "كرابيشكو" حين لم تجفل "ماندالينا"، ولم تصرخ أو تغضب مثلما تفعل فتيات الريف عادةً.

بل نظرت إلى عيني "كرابيشكو" مباشرةً.

لم تقل شيئًا.

لم تصدر صوتًا ولا ابتسامة.

كان يمكنها أن تسبه على الأقل، أو تصفعه.

ما تلا ذلك كان مستبعد الحدوث تمامًا.

لم ير "كرابيشكو" وجهًا عديم التعبير كهذا طوال حياته. وكأن شيئًا لم يكن. وكأن شيئًا لم يحدث. لو حدث موقفٌ كهذا في بلدته لتحول إلى عراكٍ أو احتفال، وربما حفل زفاف. الأمر مختلفٌ هنا. لم تتحرك عضلةً في وجهها على الرغم من أن "كرابيشكو" ظل مبتسمًا طوال الوقت وهو مغطى بالسخام والهباب.

استدارت ثم ذهبت من حيث أتت دون أن تتفوَّه بكلمة، وكأن شيئًا لم يكن. المرء لا يعرف أيضحك أم يبكي على موقفٍ كهذا.

ظل "كرابيشكو" طوال الليل يشم يده التي أمسكت بـ"ماندالينا".

وظلت "ماندالينا" طوال الليل تشعر بالنبض في أعضائها الحميمية التي لمسها "كرابيشكو" دون قصد. ثم هدأت بعد ذلك.

شعرت بغرابة الأمر، لكنها أعجبت حقًا بضخامة يد "كرابيشكو" وبعضلاتها القوية التي أمسكتها ورفعتها بسهولة.

قالت لنفسها: "إذًا فهو قويٌ كالثور كما يقولون عنه!".

تظاهرت بأنها لا تراه في الأيام التالية.

وهو بذل جهده ليتجنبها بقدر الإمكان. قامت هذه الحادثة التعيسة - كما وصـفها كلاهما - بالتقليل من متوسط درجات صفات "ماندالينا" الإيجابية التـي تغلبـت سـابقًا على صفاتها السلبية.

والعكس صحيحٌ أيضًا. فـ"كرابيـشكو" كـان يـتعلم الرياضـيات التـي كانـت في ذلـك الوقت أشبه بمنهجٍ فلسفي يشمل النـواحي الجماليـة أكـثر مـن كونهـا علـمًا لـه علاقـة بالأرقام.



28



ها هي قائمة صغيرة بالمصنوعات الزجاجية المتعاقد عليها:

أكوابٌ باللون الأصفر الفاقع لشرب الماء. وقاعدة عريضة بجسمٍ مرتفع بطول عشر بوصات، ومزين برؤوس أربعة حيوانات أسطورية والكثير من الدوامات. طقم مكون من أربع قطعٍ تملكه أسرة يهودية في مدينة "بِرن".

دورق مياه باللون الأزرق الداكن على هيئة شخصية "ثور" بطول ذراعٍ تقريبًا. جسد الدورق كان جسم "ثور"، أما فتحته فكانت فم "ثور". تملكه أرملة سكرتير مستشار بروسيا في محل إقامتها الدائم في بيتٍ ريفيٍ صغير في غابة "ثورينجن".

ثلاث كؤوسٍ زرقاء من الزجاج الروماني، مزينة بأزهارٍ بنفسجية وحشرات. طولها عدة بوصات ويملكها كاهن كبير في مدينة "تورينو".

خمسون كأسًا للنبيذ الأبيض، مزينة بأوراق الشجر البيـضاء وبـصورة "بـاخوس" إلـه الخمر لدى الإغريق والرومان. تم تـسليم عينـاتٍ إلى مدينـة "بـوردو" مـن أجـل حفـل لتذوق النبيذ.

ثلاثمائة وستون كوب بيرة شفاف وله يد لسكان منطقة "يورا".

إبريق مرسومٌ عليه أسماكٌ تسبح ولها ثلاثة ألوان: أزرق، وأصـفر وبنفـسجي. طولـه حوالي عشرين سم، ويفوح بطعم التوت البري إذا لمست طرفه بشفتيك. صـنعوا واحـدًا لأجل "ماندالينا".

زجاجات عقاقير باللون الأبيض الغائم وبأحجامٍ مختلفة. صنعوا ألف عينة بناءً عـلى طلب "جوسا راجوسا".

أكواب مياه عادية. بعنا منها ألف قطعةٍ في الورشة لمن يرغب في الشراء.



29



حضر "كرابيشكو" العديد من المحاضرات عن صناعة الزجاج. بعنوان:

"أستاذ "يوهانيس أوبرتسدورف" من "بروسيا"

محاضرة عن المشكاه الزجاجية cage cup

قال الأستاذ:

- أعزائي المستمعين، المشكاة هي كأس زجاجية تتطلب خبرةً فائقة في الصناعة. تم تصنيع تلك الكؤوس في القرن الرابع والخامس الميلادي في كل ورش الإمبراطورية الرومانية، لكن يرجع الفضل لنا نحن الألمان في حفظ هذا الفن العظيم ونقله خلال القرون الأخيرة.

يبلغ ارتفاع الكأس خمسة عشر سم، أو ما يساوي طول اليد المفرودة. قطر فتحتها ثلاثون سم، وقطر قاعدتها من ثلاثة إلى خمسة سم. تتم تغطيتها بشبكةٍ زجاجية بالغة الرقة بتقنيةٍ لم يتم تأريخها بعد. تحتوي

الكأس دومًا، أو في أغلب الحالات، على نقوشٍ يونانية أو لاتينية تعبر عن أمنيات مالكها أو نخبٍ لشيء ما. على سبيل المثال الكأس المفقودة والأخيرة من مدينة "زالتسبورج" تحمل نقشًا لاسم "ماكسميليان" العظيم: "يحيا ماكسيموس أوجوستوس".

لم يفهم "كرابيشكو" حرفًا.

أمَّا "ميليفيوري" ففهم القليل فقط.

و"فريتز" فهم أنه يتحدث الألمانية فقط.

- أفضل نموذج للمشكاة، موجودٌ في مدينة "كولونيا". لونها بين الأحمر والبنفسجي مع حافةٍ صفراء وشبكةٍ باللون الأخضر الفاقع. جميعكم تعرفون - ولا داعي للتكرار - أن هذا التأثير متعدد الألوان يتم عن طريق غمر قطعة الزجاج الأساسية في كتلة زجاجٍ متعددة الألوان. احتفظت كل ورشةٍ بسر تركيبة الزجاج الأساسي والكتلة الملونة. حاول العديد من الناس، ومن بينها ورشاتكم أيضًا، صنع هذه التحفة الفنية، لكن بلا فائدة. هناك شيءٌ غامض في طريقة صنع هذه الكؤوس. إنها تتطلب تكريسًا معينًا وإتقانًا خاصًا.

يقال إن خبراء صناعة المشكاه عاشوا تحت حماية أباطرة الرومان، وتمتعوا بمعاملةٍ خاصة، لأن الخبير منهم قد يعمل طوال حياته ليصنع كأسًا واحدة مثالية، كما أن هذه الكؤوس دليل على انتماء المالك لطبقةٍ معينة أو عائلة معينة أو مجموعة خبراء في مجالٍ ما. كانت المشكاة، جوهرة موائد العشاء. فتقف شامخة على مائدة الملك والملكة وتجذب

نظرات الإعجاب من مئات الضيوف. لقد صُنعت لإبهار النـاس، ولتـشهد بالعظمـة، ثـم لتُدفن مع مالكها في النهاية. لم ينكشف بعد سر الوسائل التي استخدمها الخبراء الألمـان في صنع تلك المشكاوات لملوكهم وأسيادهم على نفـس الغـرار. حـتمًا هنـاك سرٌ أخفـوه بأنانية ثم اندثر معهـم في قبـورهم أو انتقـل للجيـل التـالي مـن خبـيرٍ إلى آخـر. تقـول الأساطير والقصص إن هناك خبراء اليوم يتقنون هذه المهارة.

قال "أوتو":

- ما رأيكم؟

قال "كرابيشكو":

- لا بأس.

قال "ميليفيوري":

- أيًّا يكن.

قال "فرينز":

- حمدًا لله أنه يتحدث الألمانية.

30



أستاذ "براشامارابورتي" من الهند

"محاضرة عن الهندوسية والروح"

قال الأستاذ:

- المسيحيون يفهمون تمامًا ما هو النَّفَسْ. النَّفَسْ هو ما خلق البشر والكون. إنه الطيف الإلهي الذي يحوم فوق ماء الخليقة الأول في الأساطير الخيالية. يطلق عليه المسلمون اسم "الروح". في الهندوسية هناك أيضًا رمزٌ للنفس يسمى "همسة". إنها البجعة التي تجلس على البيضة الكونية في الديانة الهندوسية، وهذا يعني امتزاج طاقتنا مع طاقة الكون للسمو بالروح.

قال ثلاثتهم:

- لا نعرف هذه الأمور.

- لا بد أن معلمكم "أوتو" قد أخبركم عن الـ"ين" و"اليانج"، أي التدهور والنمو، الاختفاء والانتشار، الحياة والفناء.

- علينا الاعتراف أننا لا نفهم الهندية مطلقًا!

- في الفلسفة الطاوية الصينية، هناك تسعة أنفاسٍ تكثفت لتصنع العالم المادي. وهكذا امتلأ الفراغ بين السماء والأرض بالنَفَس الذي أعطى البشر الحياة ليعيشوا كالسمك في الماء. نطلق على هذا الفراغ في الهند اسم "فايوس"، أي الرياح أو نَفَس الحياة. هناك خمسة أنواعٍ من الأنفاس: "برانا"، و"أبانا"، و"بيانا"، و"أودانا"، و"سامانا". إنها تتحكم بالنَفَس البشري وكل الوظائف الحيوية. تأسست يوجا التحكم بالتنفس في الصين والهند. عرفتها الهند باسم "براناياما". تقوم بتنظيم التنفس وتقويته أيضًا. إن دوران النَفَس واتصاله بالطاقة البدائية الداخلية أو علم الأجنة في الفلسفة الطاوية الصينية...

قال الحرفيون بينما يتحدث الأستاذ في الخلفية:

- نظن أن هذا صعب الفهم بالنسبة لعقولنا!

- ... لا يتعلق فقط بالنَّفَس بقدر...

- سيد "أوتو"! اسمح لنا بالعودة...

- ... لكن أيضًا بالتحكم بـ...

- ... إلى ورشتنا و...

- ... طاقة الحياة...

- ... ونصنع زجاجات البيرة في سلام...!

- لا يمكنكم! عليكم التحمل! ستحتاجون إلى هذه المعرفة!

31



التجارب.

بدأ "كرابيشكو" بعمل التجارب مستندًا إلى إحدى نظرياته ومزيجٍ مما تعلمه في المحاضرات وممَّا فهمه من كتيبات الإرشادات.

ظل يجرِّب والجميع نيام.

أشعل النار بنفسه وخلط الرمل والصودا والسليكون. اختار نسب المكونات بنفسه، وأضاف عناصر لم يضيفوها من قبل، مثل الأعشاب ذات الروائح السامة. ثم نفخ في النار بنفسه. لم يتخيل أحدهم ماذا يفعل.

أولًا تخيل سمكة.

كانت تسبح في البحيرة. زعنفتاها باردتان، وعيناها زجاجيتان. البحيرة صافية ويمكن رؤية الحصى في القاع. كانت حراشيف السمكة نظيفة

وشفافة، ويمكـن رؤيـة أعـماق البحـيرة مـن خلالهـا. رأى "كرابيـشكو" في عـين الـسمكة انعكاس سحابةٍ تشبه اليد البشرية.

سمك تنعكس في عينيها سحابة.

هذا ما نوى "كرابيشكو" أن يطلق على عمله التالي.

سحب نفسًا كبيرًا وملأ رئتيـه بـالهواء حتـى انـتفخ خـدَّاه عـن آخـرهما. ثـم وضـع الماسورة الحديدية على شفتيه ونفخ ببطء.

سمكة تنعكس في عينيها سحابة.

بدأت كتلة الزجاج المنصهرة تنتفخ كالبالون، فالتقط مقص البستنة وأمـسك بطـرف الكتلة الزجاجية، حيث مكان ذيـل الـسمكة الافـتراضي، ثـم قـام بتـضييقه. أمَّـا البـاقي فحدث من تلقاء نفسه دون أن يلمس شيئًا. ثم قطع الجـزء الـذي يـصل كتلـة الزجـاج بالماسورة ووضعه في الرماد.

ثم تخيَّل سحابة.

إنها السحابة نفسها التي تخيلها منعكسة في عين السمكة. سحب نفسًا آخر وملأ به رئتيه ثم وضع شفيته على الماسورة وبدأ ينفخ.

تشبه السحابة نهرًا بريًا، فكلاهما رمادي اللون. وتشبه مروجًـا يغطيهـا نـدى صـباحٍ غائم. وهناك طيورٌ تحلق فـوق النهـر. يمتـد كـل شيءٍ عـلى مـساحاتٍ متراميـة. كانـت السحابة والسمكة صغيرتين كالإبهام. لذلك لم يحتج لنفسٍ كبير.

ربما من أعماق روحه، بدأ يتخيل ويصنع تماثيـل صـغيرة. منمـنمات بحجـم إبهامـه الأيمن. كان قلقًا من أن التماثيل الكبيرة ستحتاج إلى خاماتٍ أكثر فيلاحظ الآخرون حتمًا المواد التي تنقص باستمرار وانتظام من الورشة.

بعد ذلك تخيَّل ذبابة.

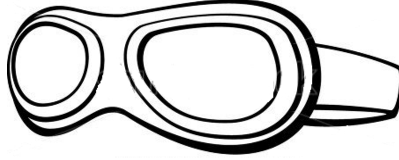
تطير من بقعةٍ إلى أخرى، ومن رأسٍ إلى آخر، ومن كتفٍ إلى كتفٍ.

تخيَّل طيران الذبابة الزجاجية.

استطاع أن يرى ثمرة نجاحه، وهو ما غمره بالسعادة. كان يتأمل مصنوعاته ليلًا قبل النوم، لكن بالنهار يظل خائفًا من أن يلاحظ "أوتو" اختفاء بعض الخامات، فهـو يقـيس كل شيءٍ بالجرام.



32



تعرَّض للضرب مجددًا كالعادة.

لكن هذه المرة لم يكن "ميليفيوري" أو "فريتز"، أو على الأقل هـذا مـا قـالاه لاحقًـا. تم اتهام بعض المجرمين الفرنـسيين، وهنـاك احـتمالٌ آخـر، وهـو أن الجنـاة هـم بعـض الوافدين الجدد من إيطاليا أو ألمانيا. ربما كانت رؤية "كرابيشكو" المختلفـة للعـالم هـي الدافع.

كان مجهدًا للغاية من أعماله اليومية لدرجة أنه لم يطرف له جفـن عنـدما وقعـت هذه الحادثة، فما بالك بقدرته حتى على استخدام مقصيه.

بينما يضربونه ظل يفكر في السبب..

هل هو يوم الجمعة؟ لا، لم يكن.

هل كان وسيمًا؟ لا، لم يكن.

هل كان خاضعًا؟ بالتأكيد نعم.

لماذا يـضربونه إذًا؟ عنـدما فكـر بالحادثـة لاحقًـا خطـر عـلى بالـه أنهـا مـن تـدبير "ماندالينا" على الأرجح، فهي تجده لا يُطاق.

لكن هذا الموقف السيئ أدى إلى موقفٍ سار لاحقًا فبدد شكوكه حول "ماندالينا".

لقد تعرَّض لضربٍ شديد لدرجة أن عينيه تورمتا تمامًا وأُغلقتا!

كان "أوتو" قلقًا، لكن فقـط لأن عينـي "كرابيـشكو" المغلقتـين سـتؤدي إلى تعطيـل العمل في النفخ، وبالتالي يقل الإنتاج اليومي لزجاجات العقاقير والبيرة والنبيذ. وإن قـل الإنتاج اليومي سيقل الدخل اليومي.

كل من بالمنزل لديه واجباته. و"كرابيـشكو" لـن يـستطيع إرغـام "جيرتـرود" زوجـة "أوتو" على رعايته، لأن آخر مرةٍ لمست جسد رجل هي عنـدما أنجبـت "مانـدلينا" مـع "أوتو". وهكذا لا مجال لاختيار "جيرترود". أمَّا الخدم فلديهم واجبات.

لهذه الأسباب طلب من "ماندالينا" الاعتناء بعينيه. كانت عاطلة كما يقول "أوتو".

وهنا تكمن روعة الأمر.

اقتربـت "مانـدالينا" مـن سريـر "كرابيـشكو"، حيـث يرقـد. وبـدأت تغـسل عينيـه المتورمتين.

ليس صحيحًا أن "كرابيشكو" لم يفكـر في امـرأة طـوال هـذه الـسنين، بـل فعل كثيرًا. لكنه نفَّثَ عن رغبته مع العـاهرات الـلاتي يعـشن عـلى الجانـب

الآخر من الجبل، لكنه لم يلجأ إليهن كثيراً، فهو لديه ذلك الحس بالاكتفاء الذاتي. لكن شيئًا ما استيقظ بداخله حين شعر بيديِّ "ماندالينا" تتحرك على خديه. لم يشعر "كرابيشكو" بهذا اللطف والجمال من قبل. وكأن ندف ثلجٍ تتساقط على عينيه.

بدأ يحلم بالأفق البعيد، بأماكن لم يصل إليها قط مع أنه أراد الوصول إليها. فكَّر في فتياتٍ كثيرات في بلدته وتذكَّر ثيابهن. فكَّر بالعشب الشائك الذي يلتصق ببنطلوناته كلما جرى وسط الحقول.

وضعت "ماندالينا" شرائح الخيار البارد على عينيه. كانت تسكن ألمه كالبلسم. بعد ذلك بدآ محادثة غيرت رأي "كرابيشكو" عن "ماندالينا" للأبد. قال:

- "ماندالينا"، أريد أن أريكِ شيئًا!

لم يستطع رؤية رد فعلها، لكنه شعر بأنها اندهشت ورفعت حاجبها أو استدارت. واصل حديثه:

- لكن قبل ذلك، أطلب حمايتك، رجاءً.

- ولماذا سأحميك؟

- لا أعرف. لقد طرأ الأمر على بالي وحسب. بأي حال، لست مجبرة إن كنتِ لا ترغبين.

لم تجب، فرفع نفسه وقال:

- هل يمكنك أن تستديري قليلًا؟

- ما خطبك يا "كرابيشكو"! أنت لن تخلع ثيابك، صحيح؟

- لا تفزعي! لن أفعل. أريد فقط أن أريكِ شيئًا يرتبط بالدعم الذي أطلبه منكِ.

قالت "ماندالينا" لنفسها: "يا للخسارة"، ثم أضافت:

- لا بأس.

بعد ذلك قالت إنها ستستدير.

لكنها لم تفعل. راقبت "كرابيشكو" ينزل بنطلونه شيئًا فشيئًا، ويمر بيده على حزامه الجلدي ثم يدخلها في جيبه. بعد ذلك أخرج خرقةً صغيرة بيدين مهتزتين.

كانت يداه مضطربتين حقًا.

شاهدت يدي "كرابيشكو" تهتزان وتضطربان، إنهما اليدان نفساهما اللتان أمسكتا بها بقوةٍ من مكانٍ أكثر حميميةٍ من أن تسمح به قواعد اللياقة المسيحية.

بدا كالطفل الصغير وعيناه مغلقتان بسبب التورم والانتفاخ. شعرت بالأسف عليه. حل ببطءٍ المنديل المتعرق الذي يربطه حول جبهته، بينما يصهر ويبرِّد الزجاج.

أخرج منه قطعتين دائريتين من الزجاج الأحمر ومتصلتين بسلك. التقطهما ووضعهما على عينيه.

تبخر أسى وشفقة "ماندالينا" عليه وحل محلهما ذهولٌ عارمٌ كاد يكشف أمرها حين كتمت ضحكةً مفاجئة.

قال:

- يمكنك الاستدارة الآن.

لم تعرف هل تضحك أم تبكي. شاهدت "كرابيشكو" ذا الصدر الضخم واليدين الثقيلتين يقف أمامها متسخًا وقذرًا وتفوح منه رائحةٌ كريهة إلى حدٍ ما. وهناك قطعتان من الزجاج مكان عينيه، فبدا أشبه بذبابةٍ عملاقة.

- آنسة "ماندالينا"؟

- نعم؟

- هل استدرتِ؟

- نعم؟

- و؟

- وماذا؟

- ما رد فعلك؟

- ماذا يمكن أن أقول؟

- هل أثير إعجابكِ؟

هل يثير إعجابها؟ لم تفكِّر بهذا من قبل. كل ما أعجبها بشأنه هو أنه يجعلها تشعر بشعورٍ جيد. لا شيء آخر. لذلك لا مجال للإعجاب المتبادل بين الشباب. لكنها مـا زالـت تجده مضحكًا بقطعتي الزجاج الأحمر اللتـين تغطيـان عينيـه المتـورمتين. بـأي حـال، لم تحظ بفرصةٍ لإجابته لأنه أزال النظارة الحمراء عن عينيه، وأعادهما إلى الخرقة التي مـا زال يمسكها بيده. ثم أخرج نظارة أخرى مثلثة ووضعها على عينيه.

تعاظم ذهولها فلم تمنع نفسها من الضحك.

- لماذا تضحكين؟

- تبدو مثل النحلة!

- وما المشكلة إن بدوت كالنحلة؟

- لا شيء، إلا أنك تبدو مضحكًا تمامًا. أعترف أنه تنكرٌ ناجحٌ.

- لا! هذا ليس تنكرًا. صنعتها لحماية عينيَّ من النيران المستعرة.

- مثير للاهتمام. لم يخطر ببالي أن... هل ترى بها؟

- بالطبع. أرى عالمًا جديـدًا تمامًـا، إنـه أكـثر جـمالًا وروعـة مـن العـالم المـألوف. في الواقع.. هل تريدين التجربة؟

نظرت "ماندالينا" حولها لتتأكد من أن لا أحد يراها، فلم تجد أحدًا. هل أرادت حقًا التجربة. لمَ لا؟ من يمكن أن يراها؟ شعر "كرابيشكو" بخطواتها الصغيرة اللطيفة تقـترب منه، وبيدٍ خفيفة أخذت النظارة الحمراء من الخرقة وارتدتها.

فجأة تحوَّل العام إلى اللون الأحمر. كل شيءٍ اصطبغ بالأحمر. لم تظن قـط أنهـا قـد تتصرف بهذه الحماقة.

- هل تريدين المبادلة؟

خلع نظارته الصفراء المثلثة وعرضها عليها. ارتدتها فأصبح العالم أصفر. كانت درجة من الأصفر لم يعرفها أحد قبل رؤية النهر الأصفر بالصين.

وقفا مقابل بعضهما، هي بالنظارة الصفراء وهو بعينيـه المتـورمتين. تـأملا بعـضهما قليلًا. اندهشت حين لاحظت أن "كرابيشكو" لا يبدو سيئًا من خلال النظارة الصفراء.

قال "كرابيشكو":

- لديَّ شيءٌ آخر!

ثم مد يده في جيبه الآخر وأخرج فراشةً زجاجية سوداء اللون وعلى جناحيهـا نقـط صفراء. خلعت "ماندالينا" النظارات بخفةٍ وأبدت إعجابها بالفراشة.

قال "كرابيشكو":

- هذه لكِ.

- لي؟ هل صنعتها؟

- نعم. يمكنني إعطاؤكِ النظارات، لكنها ستبدو سخيفةً عليكِ. أما أنا فلا يراني أحـد، بينما أعمل في فرن الصهر. ولا يهم إن رآني أحد لأن هذه النظارات للعمل.

- شكرًا. لكن لماذا تعطيني هذه الهدية؟

رد "كرابيشكو":

- أولًا، لأعتذر على إمساككِ بطريقةٍ غير لائقة. وثانيًا، أريدكِ أن تدافعي عني أمام السيد عندما يرى نظارتي. فأنا استخدمت خاماته العزيزة كما تعرفين.

قالت:

- فهمت! هذه رشوةٌ إذًا؟ يجب أن تعرف أن نفقاتنا لا تحتمل الإسراف في استخدام الخامات التي نصنع منها الزجاج، واعلم أيضًا أن حالتنا المادية صفر. وهكذا ما فعلته في الخفاء سينكشف حتمًا ولا يمكنني توقع النتيجة. اسمح لي أن أخبرك بأنك قد تفقد ثقتهم بك.

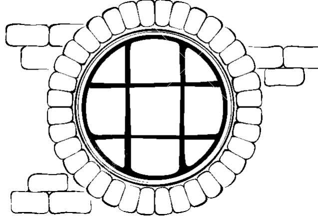
انتفض قلب "كرابيشكو" لسماع كلام "ماندالينا".

- لكن لا! ... الأمر فقط...

لم يتحدثا مجددًا.

في اليوم التالي استطاع "كرابيشكو" أن يفتح عينيه قليلًا، فذهب إلى العمل مباشرةً وارتدى النظارات الحمراء وبدأ يصهر الزجاج. صنع نظاراتٍ في الخفاء لـ"ميليفيوري" و"فريتز"، لأنه أراد أن يظهر حماسته بشأن إطلاق الخيال في الصناعة إن انكشف أمره.

33



في المساء التالي كانت "ماندالينا" تستحم.

كان يمكن أن تقرأ أو تمشط شعرها بدلًا عن ذلك. نعم، لو كانت مشطت شعرها لتغير المستقبل.

لكن لا، لقد أصرَّت على الاستحمام.

وقفت في حوض استحمامٍ خشبي رافعةً شعرها بيديها. أغرقت جسدها بالماء الساخن. تصاعد البخار الدافئ والمعطر من صدرها ومؤخرتها وعنقها. بعد ذلك غسلت جسدها بالصابون ومررت يديها على كل حنايا جسدها. تاقت "ماندالينا" لشخصٍ آخر ليفعل ذلك لها، لكن لم يلحظ أحدهم رغبتها حتى الآن. كما أنها لا تملك أدنى فكرةٍ عن الشخص الذي تريده. وفجأة رأت "كرابيشكو". كانت عيناها مغمضتين، وفجأة ودون سابق إنذار رأته منعكسًا على جفونها، حيث أشكالًا غريبة أو جزءًا من أعماق الكون في كل مرةٍ تغمض عينيك.

كان يقف مستقيمًا وشامخًا وبالطبع متسخًا. تنبعث من جسده أبخرةٌ سامة من أثر الزجاج المنصهر. كان شعره مزيتًا، وابتسامة على شفتيه.

فتحت "ماندالينا" عينيها فجأة وارتجفت بخوفٍ حتى كادت تقع.

لكنها استسلمت للذة الحسية مجددًا. هذه المرة تخيلت يدًا لطيفة لفتاة صغيرة لا تزيد على ثلاث عشرة سنة، تمسح مؤخرتها بفوطةٍ مبللة. اقشعر جسدها بأكمله. لم ترد الاعتراف أنها استمتعت بالأمر، لكنها لم تتحرك.

بهذا المعدل كادت خيالاتها تجمح بلا حدود فأغلقت عينيها مجددًا. في اللحظة التي أغمضت فيها عينيها واستسلمت للبخار الرطب المنبعث من الماء الساخن، رأت طيف "كرابيشكو" مجددًا.

كان يقف خلف نافذة.

ابتسمت "ماندالينا" وبدأت تفتح عينيها ببطء وتستحضره من خيالها إلى الواقع.

فتحت عينيها بالكامل. لم يتغير شيء. ما زال يقف خلف النافذة ويضحك ببلاهة، بينما يغلفه ظلام الليل. أغمضت عينيها مجددًا فرأته. فتحتهما فوجدته هناك.

أدركت "ماندالينا" أن "كرابيشكو" يحدِّق بها بغباءٍ من خلف النافذة حقًا، وأنه يراقبها منذ بعض الوقت. كان يمكنها أن تصرخ أو تقفز بذعر أو تغطي نفسها بمنشفة أو تقذفه بأي شيء.

على أي حال كان الأمر سينتهي إمَّا بممارسة الحب أو بالموت.

لكن لم يحدث أي من تلك الأشياء هنا. ظلت واقفة عارية أمامه دون أن يطرف لها جفن، لكن نظرتها أصبحت أكثر حدة. خاف "كرابيشكو" من نظرتها فأبعد عينيه. لكنه لم يغادر، بل بقي عند النافذة.

ذهبت "ماندالينا" عارية إلى النافذة وفتحتها قائلة:

- هذه هي أقصى حدودك في الوقاحة. أنت جلفٌ وفظ. لن تعرف أبدًا شعورًا ساميًا، وستظل غرائزك الحيوانية تسيطر عليك. لن تصبح أبدًا مثقفًا ولبقًا، لأن الغابة التي أتيت منها لم تعرف أبدًا الحضارة، بل الغرائز فقط. المنطق هو أمرٌ خيالي بالنسبة لك، أمَّا انفعالاتك ففياضة. عليِّ تذكيرك أنه بغض النظر عن هديتك، ما زلت لا أهتم، وأنا لم أعد بحمايتك. لذلك ليس لديك الحق في مشاهدتي بينما أستحم. يمكنك فعل ذلك مع رفاقك الأسود والدببة في غابتك وأدغالك الملعونة. عليك أن تفهم شيئًا آخر، رؤيتك لي عارية لا يعني بالضرورة أي شيءٍ آخر. هل تفهم؟

اندهشت "ماندالينا" من كلماتها وتصرفاتها. وأدركت أنها قالت كل ذلك لتثبت أن أخلاقها راقية، بينما هي لا تهتم أبدًا في الواقع.

استدار "كرابيشكو" وغادر بفمٍ مفتوح وعينين متسعتين.

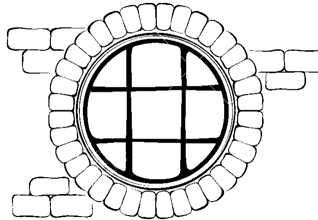
ترك قطعةً من الحرير الأحمر على قفل النافذة وقال بينما يغادر:

- هذا لكِ!

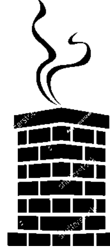
أغلقت النافذة واجتاحها الندم. اقشعر بدنها وهي تشعر أن بداخل هذه القطعة الحريرية يقبع شيئًا ربما يغير حياتها تمامًا.

عندئذ فكت القطعة الحريرية الحمراء ورأت أجمل ما رأته في حياتها. البجعة "همسة"، رمز النفس في الهندوسية. كانت مصنوعة من الزجاج الأزرق الفضي ولها عينان ذهبيتان وتاج. رفعتها نحو ضوء الشمعة، وعندئذٍ بدت أشبه بتمثال عارٍ يحمل البجعة "همسة" بين يديها. حدقت فيها ورأت ما يشبه محيطًا باللون الأزرق الداكن تتلألأ فيه كل الألوان بعمقٍ وامتزاجٍ تام.

قالت لنفسها: "يا لتعاستكِ يا "ماندالينا"!".



34



سارت على أطراف أصابعها حتى لا توقظ مـن بـالمنزل، ونزلـت بـبطءٍ مـن الطـابق العلوي إلى الطابق الأرضي. كان الوقت ليلًا، لـذلك ارتـدت ثوبًـا مـسائيًا ووضـعت شـالًا صوفيًا على كتفيها. ثم أدركت أنه لا داعي للحذر لأن شخير "أوتـو" يـتردد في المنـزل، أم هو شخير "جيرترود"؟ لا فرق.

خرجت ببطءٍ إلى الفناء من خلال الباب الخلفي وهي ملتصقةٌ بالجدار. كانت ليلـة باردة، وانتبهت إلى أنها عاريـة القـدمين وبـلا جـوارب. لكـن فـات أوان العـودة. سـقط شعرها على عينيها فلم تهتم بإبعاده خوفًا من أن يـرى أحـد عينيهـا فـيخمِّن مـا تنـوي فعله..

اتجهت إلى الورشة التي ينبعث منها الدخان كالغليون. وعلى الرغم من الظلام الذي أحاط بها، دارت حولها لتبحث عمَّا يؤكد شكوكها.

عندها رأت ما توقعته.

رأت "كرابيشكو" يرتدي نظاراتٍ خضراء.

بدا أشبه بنحلةٍ طنانة عند بعد. كان يربط منديلًا أخضر حول جبهته، وتمسك يـداه بماسورةٍ حديدية طويلة عند فمه. في الناحية الأخرى من الماسورة هنـاك كتلـةٌ زجاجيـة صغيرة تتشكل.

لكن هذا ليس ما يهم.

هناك مائدة بجواره تصطف عليها عينات الزجاجـات، رأت عليهـا مـا أذهلهـا حقًـا، لكنه أكد شكوكها في الوقت نفسه. "كرابيشكو" يصنع تماثيل زجاجية على نفقة الورشـة في الخفاء وبصورةٍ غير قانونية.

بدلًا من رؤية زجاجات النبيذ والعقاقير المعتادة، رأت دستة من التماثيل الزجاجيـة بديعة الجمال؛ حيوانات مختلفة مثل النسور والزرافات.

يقبع بجانبه كتابٌ مفتوحٌ به الكثير من الرسومات. وكأنه دليلٌ للحيوانات.

لم تتردد لحظةً ودخلـت فجـأة مـن دون طـرق البـاب. انـتفض "كرابيـشكو" بفـزع، وبسرعة البرق أعاد الزجاج الذي شكله للتو إلى الفرن، وحاول الوصول إلى المائدة بقفزةٍ واحدة ليغطي تماثيله. لكن فات الأوان. استدار إلى "مانداليـنا".

انفجـرت ضـاحكة حـين رأتـه واقفًـا بنظارتـه الخـضراء وعمامتـه الخـضراء. شـعر "كرابيشكو" بالارتياح التام حين أدرك أنها هي!

من الواضح أنه لم يتوقع زيارتها، لكنه بدأ يثرثـر بأنـه دوره في المناوبـة لإبقـاء النـار مشتعلة وكل هذا الهراء. كانت أصابعه شديدة السواد. سألته وهي تضحك:

- هل يمكنني أن ألقي نظرة؟

- تلقي نظرة على ماذا؟

أرادت إنهاء هذه اللعبة الكلامية، فتقدمت من المائدة وكشفت الغطاء عن التماثيل.

- مدهش! يا للجمال! إنها بكل الألوان! مذهل!

شجعه حماسها فبدأ يشرح لها أن هذه التماثيل الزجاجية الصغيرة هي جزءٌ من روحه وجسده. وهو مستعدٌ أن يريها تجربة إن سمحت له.

ترددت "ماندالينا" قليلًا متظاهرة بالغضب، لكنها وافقت بسرعة.

بعد ذلك ذهب "كرابيشكو" إلى المائدة والتقط شيئًا على شكل قلبٍ أحمر نصف شفاف مثل عصير الكرز. ثم ضغطه ببطءٍ على صدرها.

فجأة بدأ قلب "ماندالينا" ينتفض ويضطرب. خافت وأزال "كرابيشكو" القلب. فعاد قلبها يدق بانتظام. ثم أعاد القلب على صدرها مجددًا فبدأ يدق بسرعة. ثم سحب القلب ثانيةً.

بعد ذلك التقط كرةً زجاجية. ووضعها على صدغها الأيمن ببطءٍ حتى لا تخاف. أغلقت عينيها فجأة وتخيلت بحرًا شاسعًا تتقافز فيه الدلافين وسط الأمواج. رأت عن بعد شاطئًا مليئًا بأشجار النخيل والصبَّار الأمريكي. كان البحر صافيًا وهادئًا. أمَّا هي فكانت مربوطة إلى شجرة بينما يخرج وحشٌ من البحر ببطء.

أزال "كرابيشكو" قطعة الزجاج ففتحت "ماندالينا" عينيها بخوفٍ وصرخت:

- "كرابيشكو"! أنت حقًا مجنون!

أخبرها أنه لا داعي للخوف، وشرح لها أنه أيضًا ارتعب حين أدرك لأول مرةٍ قدرته على صنع هذا الزجاج. لكن لماذا لا يتبع الإنسان أفكاره بأسلوبٍ مختلفٍ تمامًا؟ هل تريد رؤية شيء آخر؟ نعم.. لكن عندما جربت هذه المرة، لم يكن الأمر مخيفًا. بالطبع لم يكن!

في التجارب التالية، استطاعت "ماندالينا" الشعور فقط بأنفاس "كرابيشكو" في أذنها اليمنى وبحركة صدره، بينما يتنفس خلف ظهرها. تذكَّر "كرابيشكو" أنه مرت عدة سنين منذ لمس صدره جسد امرأة ليست من عاهرات ما خلف الجبل.

فجأة تحرك "كرابيشكو" وجلس على كرسيٍّ قرب الفرن. اعترف لها بصدقٍ أنها لن ترغب بحمايته بعدما رأت إبداعاته. ولماذا تفعل أصلًا وهو مجرد غريبٍ يمكن طرده في أي لحظة دون أن يفتقده أحد؟ سيسعد "جوسا راجوسا" بهذا. تحدَّث "كرابيشكو" على أساس أن ما يفعله ليس له سوى جانب سيئ فقط، وهو التأثير سلبًا على نفقات الورشة، ولم ينتبه تمامًا إلى الجانب الإيجابي للموضوع، وهو أنه موهوب. كل ما ركَّز تفكيره فيه، هو أن العائلة والمجتمع والدولة سيعاقبونه على جريمته تلك.

صدَّقت على كلامه. على الرغم من تلاعبه بضربات قلبها وعقلها، اخترق قانون الجماعة الذي ينص بوضوحٍ على منع أي عاملٍ أو خبير من صناعة زجاجٍ راقٍ لمصلحته الخاصة الدنيئة. يجب أن يهدف عملهم إلى رقي العالم والروح الإنسانية.

ثم أخبرته ببرودٍ أنها لم تأتي لتناقش خطأه الذي سيعلم به "أوتو" في النهاية. لكنها أتت لمناقشة أمرٍ ما طرأ عليها حين رأته يرتدي النظارة

الحمراء ثم حين تفحصت الفراشة السوداء والبجعة "همسة". ما فكرت به هو تأسيس عمل. "كرابيشكو" يصنع مشغولاتٍ زجاجية وتبيعها هي سرًا. ثم يحصل على عشر الأرباح.

اندهش "كرابيشكو" من فرحتها وهي تخبره باقتراحها الذي ستخفيه عن "أوتو" مالك الورشة ورب الأسرة. كان واثقًا من أن "ماندالينا" ستحصل على نصيبها من اللوم إن اكتشف "أوتو" الأمر.

كانت "ماندالينا" قوية، على عكس "أوتو" الذي شاب شعره وظل يشيب ويشيب حتى لم يعد قادرًا على الشيبان أكثر من ذلك فبدأ يعود إلى لونه الأسود مجددًا. ليس لديها شقيق، وحتى لو كان لديها، كانت هي من سيرث الورشة. والآن خسائرهما المادية في ازدياد، مع العلم أن نشاطاته السرية ربما يكون لها دخل بهذه المشكلة. لكنها يبدو أنها مستعدة لحمايته إن أبلغها بكل ما يفعل.

حدَّق "كرابيشكو" في الآنسة "ماندالينا" بدهشة ولم يعرف ماذا يقول. فكَّر في كل الطرق التي يمكن أن يرد بها على طلبها. إن الخضوع في طبعه. على أي حال، سينتهي أمره لو رفض.

لذلك وافق. قالت:

- والآن سآخذ هذه التماثيل.

- ...؟

- أريد اختبار السوق. إن سارت الأمور على ما يرام، ستحصل على أجرك الأول قريبًا جدًا.

- ...؟

35



سيعرف "أوتو" حتمًا.

كل الدلائل تشير إلى ذلك.

انكشف الأمر ذات ليلة حين عجز "أوتو" عن الشخير فلم يستطع النوم.

كان "كرابيشكو" ناعسًا جوار الفرن. لاحظ "أوتو" النور مضاءً في الورشة، كما لاحظ شخصًا نائمًا على الأرض بجانب المائدة.

أفزعه هذا كثيرًا وأعجزه عن التفكير. دخل الورشة ورأى "كرابيشكو" نائمًا جوار الفرن. فجأة جذبت انتباهه المائدة الخشبية. كانت مغطاة بقطعةٍ قماشية حمراء اللون وتبرز أشكالًا من تحتها كأنها سلسلة جبال. اقترب من المائدة ببطءٍ ورفع قطعة القماش.

سيظل ما رآه منطبعًا في ذاكرته.

رأى سحابةً من المرمر.

والكثير من الحيوانات الغريبة المصنوعة من الزجاج الشفاف متعدد الألوان.

وعنكبوتًا له عيون كريستالية من "التوباز".

وحصانًا صغيراً على دبوسٍ مزخرف.

انحنى يتفحص هذه النماذج. كانت النار مشتعلة على الجانب الآخر ويمكن رؤيتها من خلال الزجاج، فانعكست على عينيه لمحةٌ من بريقٍ قاتل. هنا أيضًا كرة زجاجية تشع بألوان الغابة، وزجاجٌ يتلألأ بضوء القمر، وزهرةٌ لا تذبل أبدًا، ويد امرأةٍ على كومة خطاباتٍ متشابكة. ثم لمح طائرًا. كلما نظر إلى الطائر تخيل أنه يطير. جناحا الطائر كانا مطويين فيما بدا هادئًا وهو ينظر أمامه بثبات. التقط "أوتو" الطائر أمام عينه اليمنى. رأى من خلال جناحيه اللهب المتراقص للنيران الخابية. فجأة شعر "أوتو" أن الطائر في غاية الرقة لدرجة أنه ظنه سيطير من بين يديه في أي لحظة. أعاده إلى المائدة وهو يربت على جناحيه.

كانت هناك بعض الأشياء التي لم يعرفها "أوتو"، فأطلق عليها مسمياتٍ من عنده.

رأى سطحًا زجاجيًّا منحنيًا، ومسطحًا من الجانبين، ويحتوي على صبغةٍ زرقاء. فسمَّاه "النهر الزجاجي".

أدار عينيه جانبًا ورأى قطعة زجاجٍ حلزونية سمَّاها "ثعبان القدر". إنها قطعةٌ شفافة ممتدة للأعلى وتتلألأ بمختلف الألوان.

رأى قطعةً أخرى سمَّاها "الغروب". كان طبقًا دائريًا مثاليًا مرتفعًا قليلًا من الأطراف. يشبه أطباق العشاء، ويتحول لونه الأصفر تدريجيًا إلى الأحمر النحاسي.

قال "أوتو" لنفسه وهو يرمق "كرابيشكو" من آن لآخر بحرصٍ حتى لا يوقظه: "يمكننا الفوز في معرض "ميونيخ" بفضل هذا الشاب. وإن ربحنا في "ميونيخ" ستصل طموحاتي إلى السماء!".

عندئذ أحس "أوتو" بشيءٍ لم يشعر به طوال مسيرته المهنية. درس "أوتو" الزجاج طوال حياته بطريقة "نظرة الزجاج". وهي طريقة تعتمد على أن يظل جفن العين مفتوحًا. وللمرة الأولى يشعر "أوتو" بالسكينة. لم يشعر "أوتو" بالسكينة طوال حياته، كان دومًا يشعر بالقلق. حتى عندما نام مع زوجته لإنجاب "ماندالينا"، كان في عجلةٍ من أمره. لم يكن شعورًا مألوفًا. المرة الوحيدة التي اقترب فيها من هذا الشعور كان عندما فاز في معرض "كولونيا" حين ربح الجائزة الأولى على مجموعة أكوابٍ وكأسٍ مصنوعة من الزجاج التجريبي، ثم اشتراهم الإمبراطور شخصيًا. حينها شعر بشيء يشبه السكينة.

والآن.

شعر بسلامٍ تام لدرجة أن ساقيه ارتختا واضطر للجلوس على صندوقٍ زجاجي. ثقل جفناه وتهاوت ذراعاه إلى جانبيه. لم ينم لكنه بدا وكأنه كذلك. لم يغلق عينيه، لكن بدا أنهما كذلك. لم يتوقف قلبه عن النبض، لكنه بدا أنه فعل. كان يتنفس وإن بدا العكس.

أدار نظره فيما حوله بجهدٍ كبير.

إلى يسار النماذج رأى دمعةً زجاجية كبيرة بحجم قبضة اليد. عندما نظر إليها شعر برغبةٍ في السفر إلى أماكن لم يذهب إليها من قبل. سمع أمريكا وجاءته رغبةً في السفر إليها. لكن رغبته لا تتعلق باستكشاف أماكن جديدة، بل كانت أشبه بالعودة إلى الوطن. اندهش "أوتو" تمامًا بهذا الشعور الجديد، فهو لم يعش قط في أمريكا ولم يولد هناك. مع ذلك كلما نظر إلى الدمعة شعر أن أمريكا هي وطنه واشتدت رغبته في العودة إليها. غريب.

أبعد نظره.

رأى ورقة عنبٍ زجاجية. شعر بالحزن. تتغير ألوان الورقة وفقًا لشدة الضوء الذي يمر من خلالها. شعر وكأن طعم النبيذ في فمه. فجأة قرر إنهاء كل شيء.

كان "كرابيشكو" نائمًا بعمق فيما تحولت مشاعر "أوتو" إلى القلق.

فجأة أظلمت أفكاره واسود وجهه. أغلق عينيه قليلًا ثم التقط قطعة "النهر الزجاجي" ووضعها في جيب سترته ورحل بسرعة تاركًا "كرابيشكو" نائمًا.

أمَّا النيران فقد خبت تمامًا.

قال "أوتو":

- سنسافر إلى "ميونيخ" الشهر القادم. وسنرى ما سيحدث!

36



اجتمع التجار مـن جميـع أنحـاء العـالم في معـرض "ميـونيخ". كانـت فـرص الـسفر محـدودة في ذلـك الوقـت. جـذب المعـرض الكثـير مـن النـاس المهتمـين بالمـصنوعات الزجاجية الجميلة، كما كانوا مهتمين عـلى وجـه الخـصوص بمـسابقة الـنفخ في الزجـاج المقامة في الطرف البعيد من المعرض. كـان المتنافـسون مـن إيطاليـا والـنرويج وفرنـسا، واشترك "كرابيشكو" بالنيابة عن بلـدة "تـشالو" لأنـه لم يـستطع تمثيـل مقـدونيا فمثَّـل سويسرا.

التحدي الأكبر لـ"كرابيشكو" كان المنافس النرويجي الذي قدَّم نفـسه بصفته سليلًا لعائلة "أولافسون" الأصيلة من سلالة الفايكينج. صدر هذا الرجل بضعف حجم صدر "كرابيشكو"، وله ضعف طوله وعرضه ووزنه. باختصار، كل شيءٍ في صالح النرويجي. لكن هـذا لم يُخِـفْ "كرابيـشكو". بل العكس، لقد اكتسب طاقةً إضافية عندما أمـره "أوتـو" أن ينتـصر كي

يحرز له نقاطًا عالية بين الجماعة، فيتمكن من التنـافس عـلى منـصب رئـيس الحـرفيين مجددًا.

قواعد المسابقة في غاية السهولة، المتنافس الذي ينفخ أكبر كتلة زجاجٍ بنفسٍ واحـد هو الفائز.

هذا كل شيء.

ملأ النرويجي رئتيه بالهواء كديكٍ عملاق. سحب نفـسًا ضـخمًا لدرجـة أن الجمهـور القريب منه شـعر بـنقصٍ مفـاجئ في الهـواء وبـصعوبةٍ في التـنفس، مـما اضـطرهم إلى التراجع، حيث يستطيعون رؤية جبال الألـب وتعـويض الأكـسجين المفقـود. بعـد ذلـك أخرج النرويجي الزجاج المنصهر من الفرن ونفخ فيه.

تشكلت كرةً زجاجية عملاقة وكأنها شمسٌ منصهرة ضخمة بحجم عجلٍ متوسط.

قال "كرابيشكو" لنفسه: "لا يمكنني هزيمة هذا العمـلاق"، لكنـه لـن يستـسلم أبـدًا وسيبذل جهده من أجل مسيرة "أوتو" المهنية.

سحب "كرابيشكو" نفسًا وملأ رئتيـه بأقـصى مـا يمكـن، فـشعر الجمهـور بـنقصٍ في الهواء مثلما حدث مع النرويجي.

بعـد ذلـك قـام المـساعدان المـاهران، "فريتـز" و"ميليفيـوري"، بـإخراج الماسـورة الحديدية من الفرن ونفخ "كرابيشكو".

شعر برأسه يدور.

ظل هكذا لنصف ساعة.

عندما تعافى أخيراً أخبر الناس أين كان خياله وماذا رأى.

قال:

- عدت ألف سنةٍ إلى الوراء، مع أناسٍ لغتهم قليلة المقاطع والكلمات. اسمها "كـوا"، إنها لغةٌ صغيرة كالبرغوث. يبلغ عدد متحدثيها خمسمائة: مئتين وخمسين مـن الرجـال، ومئتين وخمسين من النساء. نصف الرجال كانوا صبية، ونـصف النـساء كـن فتيـات، يـا للغرابة. جميعهم يتحدثون لغة الـ"كوا". يفضِّل الـصبية الأغـاني الـسعيدة أثنـاء النهـار، ويمكنك أن تغني معهم أجمل الأغاني الشعبية، بينما تفـضِّل الفتيـات أغـاني الـشجن في الليل، حيث تعلمهن أمهاتهن إخفاء شعورهن بالذنب.

أثناء الحرب يتضاءل استخدامهم للغة إلى أقصى حد. قالوا إن سبب الحرب الرئيـسي هو رغبة الآخرين في محو لغتهم وأغانيها الجميلة.

رحبُّوا بي ترحيبًا حارًا، فأردت التعبير عن امتناني. صنعت حاويتين زجاجيتين، واحـدة لأغاني النهار، وأخرى لأغاني الليل حتى لا يسرقها أحد. شعروا بالامتنان لأنـه منـذ وقـتٍ طويلٍ جدًا سينامون مطمئنين دون تعيين أحدهم لحراسة أغانيهم. أخبرني أحدهم أنهم منذ ذلك الوقت يذهبون للنوم جميعًا في الليل وهم يرون أغـانيهم مـن خـلال الزجـاج الشفاف للحاويتين، فينامون مطمئنين.

زرت مكانًا يجري فيه نهران عملاقان متوازيان لمسافة ألف ميل. وهنـاك يتحـدثون لغةً محددة تسمى "ستيكس".

كلمة "ستيكس" تعني العصي، وذلك لأن كل مفردات اللغة يمكن التعبير عنها بالعصي. فهناك العصا الرفيعة، والسميكة، والمكسورة، والمعوجة، والخشنة، والمقشرة، والموحلة، والعصا المقذوفة، والعصا الساقطة على الأرض. لكلٍ منها معنى. عندما يمرض أحدهم يشيرون إلى ذلك بعصا مسوسة أكلتها اليرقات. وعندما يكون أحدهم بصحةٍ سليمة يشيرون إلى ذلك بعصا نضرة وجميلة. عندما يغضب أحدهم يلقون عصًا صغيرة أمام عينه، إذا فهم الرسالة يقذف المتحدي بعصا أكبر وأسمك، عندها يرد المتحدي بعصا أضخم وأشد فيرد الآخر عليه، وهكذا.

إلى أن ينجو أحدهم.

صنعتُ لهم عصي زجاجية في محاولةٍ مني لإثراء لغتهم. سعدوا كثيرًا في البداية، لكنهم ندموا بعدما أدركوا أنهم لا يستطيعون قذف العصي على بعضهم خشية أن تنكسر بسهولة. بأي حال، احتفظوا ببعض العصي الزجاجية تذكارًا مني وحرسوها بشدة. أمَّا المعنى الذي تدل عليه هذه العصي فهو: "ليحفظكم الرب من الأغراب الذين يريدون سرقة لغتكم!".

بعد ذلك زرت هؤلاء الناس النشيطين الذين يتحدثون لغة "فرو". هذه اللغة بمثابة تراثٍ انحدر لهم من أسلافهم. جميعهم في غاية السعادة لأن أحدهم تذكر أن يعطيهم شيئًا. كانوا يعانون من فقرٍ مدقع، ويأكلون أوراق النباتات فقط. لم يفهم الذين يزورون العشيرة لغتهم، وبالتالي عجزوا عن فهم آلامهم. لأن لغتهم تتكون من عشرات الآلاف من الكلمات المرتبطة بكلمة "أوراق"، مثل ورقة بيضاء، وورقة خضراء، وورقة

متعفنة، وورقة أكلها الدود، وهكذا. انتشرت لغتهم في العالم حتى إن اسم إحدى المدن مشتقٌ من كلمةٍ في لغتهم.

إنها مدينة لشبونة.

منذ وقتٍ طويل لا يعلمه إلا الله، وصل أحد متحدثي لغة "فرو" إلى موقع المدينة الحالي. وبما أن كل مفرداته اللغوية مرتبطة بالأوراق، سمَّاها "ليف بون"، حيث إن كلمة "ليف" "leaf" تعني ورقة شجر بالإنجليزية. تحولت الكلمة بعد ذلك إلى لشبونة.

صنعت نصبًا تذكاريًا في لشبونة، طوله عشرة أمتار، وعرضه متران، وحجم قاعدته ثلاثة أمتارٍ مربعة. حفرت نقشًا على النصب سيظل واضحًا لألف عام: "تكريمًا للغة التي ظهرت في هذا البلد منذ ألف عام".

لكن أغرب مكانٍ زرته كان يسكنه النساء فقط ويتحدثن لغتهن الأنثوية المسماة "شراكا". في الواقع، لغة الـ"شراكا" هي جزءٌ من لغةٍ أشمل تسمى "كابي". ويقال إنها لغة تستخدمها فقط الفتيات الصغيرات عندما يصلن إلى سن الثالثة عشرة أو السادسة عشرة... لكن لا تحاسبوني على كلامي. لذلك يمكننا أن نسمي لغة "شراكا" اللغة السرية بلا تردد، لأنها ما زالت مستخدمة على نطاقٍ واسع في الهند وإندونيسيا لوصف كل الأشياء المؤنثة مقارنةً باللغة "كابي" التي تشمل كل ما هو مذكر ويستخدمها الرجال والأولاد. على سبيل المثال، لا تحتوي لغة "كابي" على كلمة حيض وكلمة مهبل، في حين تحتوي عليهما لغة "شراكا". كما تشتمل على آلاف المفردات الملطفة لكلمة "عضو ذكري" الذي كان يُطلق عليه في الغالب اسم "قضيب شيفا" على اسم الإله الهندوسي "شيفا". من لا يفهم هذه اللغة يجلس جانبًا ويحاول تخمين المحادثة

اللطيفة التي تجريها النساء بلغة "شراكا". بعد حركة التحرر في النصف الثاني من القـرن العشرين، افترض الجميع أن لغة "شراكا" ستنتـشر بـسرعة الـبرق، وظنـوا أنهـا ستـصبح عاشر لغة مستخدمة في العالم عـلى الـرغم مـن أنـه لا يفهمهـا أي رجـلٍ. صـنعتُ لهـم قضيبًا زجاجيًا لاحتياجاتهم وجعلوه تميمة وزينوه بسعف النخل.

صاحت "ماندالينا":

- لقد رأيت الكثير من الأشياء الجميلة!

ظل "أوتو" يصرخ في "كرابيشكو" الذي كان مسرورًا لأنه أسعد "ماندالينا".

قال "أوتو" بغضب:

- لقد خسرت! ضاعت كل جهودي في تعليمك أصول الـصنعة. لم تخـسر فقـط، بـل كانت كرتك الزجاجية أصغر وأتفه بكثيرٍ من كرة النرويجي. مـاذا علمتـك عـن الـنَّفَس؟ عن الفضاء والطاقة؟ لا بد أن أفكارك مشتتة أو مضطربة؟ فلو كـان تفكـيرك صـافيًا لما حدث ذلك أبدًا.

أحنى "كرابيشكو" رأسه فيما قال "أوتو":

- لنذهب!

37



- هناك من يسرقني!

هكذا صرخ "أوتو" في بداية الاجتماع الذي عقده في غرفة الطعام الكبيرة على أساس النقاط التالية:

1 – تمجيد الصفات النفسية والجسدية والأخلاقية للعائلة.

2 – مناقشة التقرير المالي.

3 – محاسبة "كرابيشكو".

4 – مناقشة أي أمرٍ آخر.

لا يحتاج المرء إلى ذكاءٍ حادٍّ ليخمن أن النقطتين الأولى والثانية تعتمدان على الثالثة، وأن هذه المناقشة ستركز أساسًا عليها.

وبالفعل ركزت المناقشة كلها على النقطة الثالثة.

وبما أن هذا الاجتماع يخص استمرارية العائلة، لم يجرؤ أحدهم على التغيب، بل ذهبوا إلى غرفة الطعام أبكر من الموعد المحدد في انتظار معرفة نتيجة الأحداث الأخيرة.

سأله "ميليفيوري":

- ألا تبالغ قليلًا في هذه المناقشة؟

كانت دوافع سؤاله مجهولة تمامًا، فهو ليس مهتمًا بالدفاع عن "كرابيشكو" في حين يفترض الجميع أنه مذنب.

قال "أوتو":

- منذ متى يحق لك اتخاذ القرارات يا "ميليفيوري"؟ هل لك حصةٌ في الورشة؟

أحنى "ميليفيوري" رأسه كما أحناه "كرابيشكو" في "ميونيخ".

وهكذا بدأ الاجتماع بجملة "هناك من يسرقني!"، وبعد وقفةٍ قصيرة وانفعالية أحنوا الجميع رؤوسهم ونظروا لأقدامهم. هذه كانت إشارةً كافية لـ"أوتو" كي يعرف أنهم فهموا مضمون كلامه.

فقط "كرابيشكو" من رفع رأسه، ولم يخمن أن هذا التعليق يخصه مباشرةً.

- لا أعرف إن كنتم تعلمون أخبار العمل، لكن حالنا لا يسر مؤخرًا. أولًا، تواجهنا مصاعب مالية باستمرار. ثانيًا، لقد ركزنا كثيرًا على الفن، وهذا خطأ فتَّاك في أوروبا حاليًا، حيث يغزوها الإنتاج الصناعي. لماذا؟ لأن

أوروبا تحتاج إلى المال وليس الفن! من الواضح أننا تناسينا وضعنا واندمجنا في الخيال. لا تظنوا أنني غيرت أرائي أو تراجعت عن معتقداتي! كلا! ما زلت أعلنها أمـامكم، ليحيـا الفن! الفن هو ما يوحدنا! لكن - أيها الأصدقاء - لا يمكننا صـناعة تحفـةٍ فنيـة دون أن نسد جوعنا أولًا.

أكمل:

- على أي حال، كنا سنصمد أمـام هـذا الموقـف الـصعب لـو لم يحـدث مـا حـدث. يمكنكم بالفعل تخمين ما جرى مـن كلامـي في أول الاجـتماع. عنـدما قلـت إن أحـدهم يسرقني لم أقصد أنه يسرق مالي حرفيًا، فأنا لا أملك مـالًا أصـلًا. مـا قـصدته هـو سرقـة الخامات التي نحتاجها للإنتاج. وبـالطبع اكتـشفت الفاعـل لأننـي أنـا "أوتـو". نعـم يـا عزيزي "كرابيشكو"! أنت تتباهى بلا فائدة! لقد آويتـك كأحـد رجـالي وعلمتـك أصـول الصنعة وأسرار التنفس، ما كنت لتتعلم هذا في أي مكانٍ آخر. لقد خاب أملي بك حقًـا. تقول إشاعةٌ إنك ارتكبت الجرم نفسه قبل أن تأتي إلينا، عندما كنت مقيمًا عند صديقي العزيز "باسكال". وتقول الإشـاعة أيـضًا إنهـم سـجنوك قلـيلًا لـذلك. نعـم، لقـد أخـبرني "باسكال" شخصيًا أنه اضطر للصراخ بإحباطٍ مثلي تمامًا "هناك من يسرقني!".

تمتم كل الموجودين:

- يا للهول!

التزمت "ماندالينا" الصمت، بينما بحث "كرابيشكو" عن عينيهـا. لكنـه لم يجـدهما، ربما تدحرجتا تحت المائدة.

واصل "أوتو":

- دعوني أواصل كلامي.. ولكي أبني افتراضاتي على أدلة، تتبعت "كرابيشكو" سرًا واكتـشفت أنـه يـستخدم خاماتنـا التـي نـدفع ثمنهـا بـصعوبةٍ ليـصنع أغراضًـا لاستخدامه الشخـصي. هـذا لـيس كـل شيء. إنـه يـصنع أيـضًا حليًـا زجاجيـة مثـل دبابيس الزينة والعقود. رأيت السيدات الراقيات يرتدينها طوال الطريق مـن هنـا حتى برلين.

صاح الآخرون وهم يحدقون بـ"كرابيشكو" بعدم تصديق:

- غير معقول!

بحث عن عيني "ماندالينا" مجددًا ولم يجدهما. ربما تدحرجتا الآن تحت السجادة.

أكمل "أوتو":

- كيف نعاقبك يا عزيزي "كرابيشكو"؟ أولًا، يمكننـا إرسـالك إلى الجـيش النمـساوي لمحاربة الأتراك فيطعنونك بالخازوق. أو يمكننا إرسالك إلى الروس فيقبض عليك الأتـراك أيضًا ويطعنونك بالخازوق! أو يمكننا إرسالك إلى الكاثوليكيين فيطعنونك بالـ..

توقف "أوتو" عـن الكـلام عنـدما تقـزز مـن الفكـرة المستحـضرة في خيالـه، وانتقـل للحديث عن العواقب مباشرةً.

بالإضافة إلى أن الجميع شعر بالأسف الآن على "كرابيشكو"، وخاصة "ميليفيوري" الذي ظل مقتنعًا أنها مؤامرة ولا صلة لها بالحقيقة. لكن من دبرها؟ أرجوكم، من الذي يدبر هذه المؤامرة هنا؟

قال "أوتو":

- باختصار، أجد نفسي مضطرًا لتقديم أقل أساليب العقاب انتشارًا في عالم الأعمال. وهذه العواقب - يا أعزائي - هي نتيجة كلمةٍ واحدة؛ "الإفلاس". الإفلاس. وأكررها مائة مرة، الإفلاس. تعرفون جميعكم عواقبه. لن أستطيع إعالتكم، وستذهبون حيثما تشاؤون.

أنهى كلامه قائلًا:

- والآن، اسمحوا لي أن أختم حديثي عن روحي المعذبة بالحديث عن أسطورتي المفضلة لخلق العالم، إنها التي ذكرتها عند قدوم "كرابيشكو". لم يكن الرب وحيدًا في الكون. كان الشيطان حاقدًا على إبداعات الرب وقرر أن يصنع شيئًا، فصنع زلزالًا. انشقت الأرض وابتلعت كل الأراضي والجزر، وفاضت البحار والمحيطات، وماتت النباتات والحيوانات ثم الناس، وأخيرًا تدمرت الأرض واندثرت في الكون الشاسع. لم يبق سوى الرب والشيطان في صراعٍ أبدي في كونٍ سرمدي وسط الأحزان والندم على ما كان يومًا إبداعًا عظيمًا أثناء وجود الأرض الزجاجية. هكذا أشعر. أشعر بالحزن والندم على فقدان زجاجي.

قال "كرابيشكو" دفاعًا عن نفسه:

- أظنك تبالغ.

لكن لا فائدة من التبرير بعدما شرح "أوتو" صعوبة موقفهم.

بحث "كرابيشكو" عن عيني "مانداليना" للمرة الثالثة. وهذه المرة وجدهما والتقطهما من تحت المائدة ثم أعادهما إلى محجريهما على الرغم من جفونها المغلقة.

ساد الصمت في غرفة الطعام، فلم يُسمع سوى صوت اهتزاز النافذة من هواء الليل.

قال "أوتو" جاذبًا انتباه الجميع:

- إلا إذا.. إلا إذا وجدنا حلًا.

أعقب هذه الجملة صمتًا ثقيلًا حتى قامت "جيرترود" - التي ظلت صامتة طوال الاجتماع - بسؤالهم ماذا يريدون أن يأكلوا على الغداء غدًا وعلى العشاء اليوم. وظل الآخرون صامتين.

- كيف تفكرين في الطعام الآن يا امرأة؟ إن مصير ورشتنا وحياتنا على المحك!

وفي ظل الصمت السائد وقف "أوتو" أمامهم وقال:

- لقد قررت.

تلا ذلك العديد من الأسئلة، أولها سؤال "جوسا راجوسا"، تجسيد الشر الذي أتى لأسبابٍ مجهولة:

- ماذا قررت أيها السيد الخبير؟ هل ستسلم "كرابيشكو" إلى الشرطة وجيش المقاطعة؟ أم هل سترسله مثلًا ليكون من حراس البابا؟ هل نصهره في

فرن الزجاج حتى لا يُعرف له طريق؟ في الواقع.. لا أظن أن أي شخصٍ سيسأل عنه، فهو لا عائلة له هنا وليس مقيدًا في السجلات الرسمية بصفته من سكان هذه الغابات.

فاجأهم "أوتو" بقوله:

- سيتم ترقية "كرابيشكو"!

ارتفعت جلبةٌ صاخبة وقطعت الصمت حتى عجزوا عن سماع بعضهم. أخيراً فتحت "ماندالينا" جفونها ورأى "كرابيشكو" عينيها. بدأ "جوسا" بالصياح قائلًا إن هذا ظلم فادح، وإنه لا يمكن ترقية "كرابيشكو" بسبب قدرته على نفخ الزجاج فقط وما إلى ذلك من جعجعة. حتى إنه تمادى إلى سب الدين وأطلق شتائم عرقية مهينة.

حدد "أوتو"سير العمل الذي سيتولاه "كرابيشكو":

- إعادة هيكلة الإنتاج وتبسيطه هي الوسيلة الوحيدة للنجاة في صناعتنا.

جلسوا جميعًا لينتبهوا له أفضل.

تقوم خطته على توجيه إنتاجه إلى فن الزجاج المتاح للاستخدام العام، وهو ما يسمى "بيجوتيري" التي تعني مجوهرات باللغة الفرنسية. الكثير من العائلات حول العالم بدأت بصناعته.

- لكن لا تتعجل بالفرح يا "كرابيشكو"! هذه الترقية هي اتفاقٌ مؤقت. بصراحة.. حتى لو قررنا البدء بهذا العمل ليس لدينا التمويل الكافي.

اقترح "جوسا" أن يقتلعوا أسنان "كرابيشكو" ويبيعوها لشراء الخامات اللازمة لمرحلة الإنتاج الأولى.

وقفت "ماندالينا" وصاحت فجأة:

- صمتًا! صمتًا جميعًا!

جلس "أوتو" وأحنى رأسه.

قالت "ماندالينا":

- يمكنكم التخمين أن أبي يحني رأسه لأنني سأقول الحقيقة. أنا من أمرت "كرابيشكو" بصناعة الزجاج المزخرف! أنا من جمعت المال والأرباح! أنا من يخبئ أموالًا في السر لإعادة هيكلة الإنتاج. لكن لديَّ بعض الشروط التي يجب تنفيذها فورًا.

صمتت قليلًا، ثم أكملت:

- سنجعل "كرابيشكو" كبير نافخي الزجاج. سنطرد العمال الآخرين. سنوظف نساءً، لنختر شاباتٍ ليتعلمن مهارة الحفر على الزجاج. يتقاعد أبي في بيتٍ منفصل بسبب شيخوخته.

ساد الصمت.

38



هذا ما فعله "كرابيشكو" في الفترة التالية.

صنع كأسًا زجاجية بلون ضوء القمر وسمَّاه "أحزان القمر".

وصنع زجاجًا بلون الغروب وسمَّاه "شمس الليل". كما صنع حاويةً زجاجية تحمل أشكالًا تشبه البرق وسمَّاها "يوم البرق".

بالإضافة إلى زجاج ضبابي أملس سمَّاه "الضباب الأسير". وضع "كرابيشكو" جزءًا من روحه وأفكاره ومزاجه في طبقٍ زجاجي وسمَّاه "الصحن السرمدي". إذا وضعه أي شخصٍ تحت الوسادة سيمنحه أحلامًا بلا حدود.

اللون الوحيد الذي عجز عن أسره في الزجاج هو ظلام الليل. لم ينجح مهما حاول، لأن مهما كان الظلام حالكًا تشع النار نورًا فتمنع الزجاج من امتصاص منظر الليل. أطلق "كرابيشكو" على هذه المعضلة اسم "زجاج الليل المستحيل".

39



هذا كان الحوار الذي دار في حلمه:

- مهلًا يا "كرابيشكو"! لا يبدو عليك الحنين أبدًا!

- ماذا تعني؟

- لا تبدو مشتاقًا إلى وطنك!

- بل أشتاق! بالطبع أفعل، لكنني لا أظهر ذلك.

- هل يمكن أن تخفي أو تكبح اشتياقك؟

- نعم، بالطبع! خاصةً إن كنت تشعر بأنك أفضل حالًا هنا مما كنت عليه هناك.

- لا تحلـم بـالمروج ذات الأزهـار المنديـة وغابـات البلـوط ذات الأشـجار الظليلـة؟ بالإضافة إلى الأنهار الجارية؟

- تم اجتزاز المروج منذ وقتٍ طويل، وتدمرت شجرة البلوط، والنهر الجاري لا يرحمني.

- ألا تحلم بلغتك؟

- أحلم بالكثير من اللغات الغامضة من الماضي والمستقبل. من بينهم لغتي، لكنني أتحدثها مع نفسي فقط.

- يا لك من وغدٍ يا "كرابيشكو"! ماذا عن قومك؟



40



افتتح "كرابيشكو" و"ماندالينا" محلًا.

تبيع هي ما يصنعه هو.

في الوقت نفسه، انعزل "أوتو" عن الجميع، وأقام في كوخٍ صغير بعيدًا عن الجميع، بعد أن تم تشخيص حالته بأنه مصابٌ بانهيارٍ عصبي.

يجتهد "كرابيشكو" في العمل خلال الليل، فيما ينام كلوح الخشب أثناء النهار، وأحيانًا ينسى أن يأكل. فالليل يلهمه بأفضل مما يفعل النهار بكثير.

فالأرواح تحوم في الليل ويمكنه أسرها في الزجاجات.

أما بالنهار فيعجز عن ذلك لأنها تكون نائمة.

يستيقظ في المساء ويصنع النماذج التي تخيلها بالفعل أو يستسلم لإلهامه، بينما يشاهد الماسورة الحديدية تنغرز في الزجاج المنصهر، ووهج النيران البرتقالي يلهب عينيه اللتين تنساب الأفكار عبرهما. كل خيالاته

التي يبثها في الزجاج جاءت من ذلك الوهج البرتقالي المحمر والأصفر. مئات الحشرات الطائرة تنجذب إليها مثل الفراشات والعناكب والذباب، وأيضًا مئات الحيوانات الصغيرة مثل السحالي والقنافذ والسلاحف. وتنبعث منها آلاف الأشكال الزجاجية التي لا يمكن تسميتها، لكن يمكن إعطاؤها ألقابٍ.

صنعت "ماندالينا" قلائد وأساور وحلقانًا من هذه الأشكال.

في البداية كان يأتيهما فقط الزبائن الراغبين في تجربة شيءٍ فريد وجميل. كانوا الزبائن أساسًا من المارة الألمان والفرنسيين، وعلقوا جميعًا في البداية أن هذه الأشياء بلا فائدة. زجاجات النبيذ هي الشيء الوحيد القابل للاستخدام، أما باقي الأغراض فهي للزينة فقط. ومن قد يهتم بالزينة مع الحرب الطاحنة في أوروبا؟

شعرت "ماندالينا" بالإحباط التام تدريجيًا، لكنها أخفت شعورها عن "كرابيشكو". كان إحباطها عميقًا لدرجة أنها أصيبت بألمٍ في المعدة بسبب مخاوفها. انغمس "كرابيشكو" في عمل النماذج التي كرس لها نفسه بشكلٍ غير طبيعي، لهذا لم يلحظ محنة "ماندالينا".

تحريًا للدقة، زارت سيدة أرستقراطية محل "كرابيشكو" و"ماندالينا". اسمها "بريجيت فون كيرشتاين"، وهي معروفة في مناطق الحدود الألمانية والفرنسية والسويسرية بمللها الشديد لدرجة أنها تزور المدانين في السجون لتقابل أشخاصًا من بلادٍ عجيبة وتسمع قصصًا عن مغامراتهم.

صاحت السيدة بانفعال:

- يا لهذه النماذج العجيبة! ما زالت هناك أماكن جميلة لم أزرها بعد! أماكن بعيدة للغاية! كم أرغب بالحصول على أشياءٍ كهذه لتزيين قبعتي!

أسرعت "فون كيرشتاين" إلى إحدى المعروضات وثبتتها في طية سترتها. كانت زهرة صبار وعليها خنفساء منقطة صغيرة. ثم التقطت تمثال حيوان يشبه التنين مزين بزهرة لوتس وثبتته في قبعتها. بعد ذلك ارتدت أسورة على شكل ثعبان يلتهم ذيله. وأخيراً أخذت مشبك حزام مصنوعًا من زجاج الأوبالين المعتم على شكل نجمة بحرٍ مزينة بكريستالاتٍ حمراء.

لم تسأل عن السعر، بل دفعت وخرجت بسرعة لتتجول في شوارع الحي.

وكان هذا كافيًا لكل البلدات الصغيرة من "أوبون" حتى لشبونة.

امتلأ المحل بالنساء الراغبات في تقليد الكونتيسة التي تباهت بدبابيس زينتها في كل مكان. سرعان ما أصبح "كرابيشكو" و"ماندالينا" غير كافيين لإدارة المحل.

سألت السيدات المتحمسات:

- من صنع هذه الأشياء الفريدة؟

- زو... زوجي.

لم تجرؤ "ماندالينا" على التفوُّه بهذه الكلمة في البداية، لكنها تشجعت.

- يا للروعة! يا لها من أخبارٍ سارة! لم نعرف أنك أخيراً تقبلتِ "راجوسا"!

- إنه ليس "راجوسا" بل هو شخص آخر!

في ذلك الوقت لم يعرف "كرابيشكو" شيئًا عن كونه أصبح زوجًا!

- كيف لم نعلم شيئًا عن الأمر؟ من هو ومن أين؟

- يقول إنه نبيل من مقدونيا.

- لم نسمع عن هذا من قبل! لا بد أنها بلادٌ عجيبة!

- بالتأكيد!

- هل لديهم موز؟ كل البلاد العجيبة تزرع الموز؟

- بالطبع لديهم!

- وقرفة؟

- وقرفة أيضًا!

- نحن في غاية السعادة من أجلك!

صاحت كل السيدات:

- لا بد أنه أمرٌ مثير للاهتمام. هل يرتدي عمامة؟

- لا، لا يفعل.

- لا يهم! سيفعل إن اضطر!

41



يبدو أن الأعمال الناجحة تستحضر أمراضًا شديدة.

قالت "ماندالينا" ذات مرةٍ إلى "كرابيشكو":

- عزيزي "كرابيشكو"، أنا أشعر بمرضٍ شديد.

- ماذا أصابك يا عزيزي "ماندالينا"؟

- أشعر بثقلٍ في معدتي، إنه يضغط عليّ وكأنه سيمزق أحشائي. لم أنم منذ ليـالٍ، ولم أخرج منذ عدة أيام كي لا يلحظ أصـدقائي آلامـي. لا تـسألني عـن الأطبـاء لأنـك تعـرف الجواب بالفعل. نعم، ذهبت للعديد منهم. وجميعهم هزوا رؤوسهم بجهلٍ عن مرضي. لم يجرؤوا على التشخيص قبل استشارة اختصاصي من باريس، وقال بعضهم موسـكو. لا أريد إزعاجك بمشاكلي، فأنت يمكنك تخمين ما هي بالفعل.

- لا يمكنني.

- سواء خمنت أم لا، سأخبرك أن حالي لا يتحسن، بل يزداد سوءًا. أنت تعرف كما أنا صادقة. أشعر أنني سأموت قريبًا.

- لا تقولي هذا يا عزيزتي "ماندالينا"! لا تختلقي أوهامًا! الإنسان لا يموت بهذه البساطة!

- فلتخبرني من فضلك إذًا، كيف يموت الإنسان؟

- من حيث أتيت يموت الناس غارقين بدمائهم في المعارك، وليس على فراشٍ ناعم.

بدت جميلة ومشرقة لأول مرةٍ منذ أن أمسكها في الفناء. إنه جمالٌ لا يظهره سوى شخصٍ مريض في أشد لحظات معاناته الداخلية. كان خدَّاها شاحبين، وشفتاها حمراوين وشعرها أصبح أحلك سوادًا. بدت أشبه بجنيةٍ من على بعد.

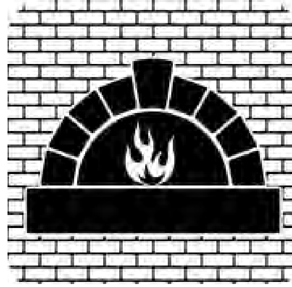
انقبض قلب "كرابيشكو" بشدة وقال ببطء:

- تعالي إلى الورشة في منتصف الليل تمامًا!

نظرت إليه بحزنٍ شديد دون أن تسأل لماذا أو كيف. أصبحت غير مبالية بما يحدث حولها.

لهذا وافقت على الذهاب إليه دون اكتراث.

42



يوم الأربعاء في منتصف القرن التاسع عشر.

بضع دقائق قبل منتصف الليل.

بدا القمر بدرًا.

دخلت "ماندالينا".

كان الفرن موقدًا لبعض الوقت بينما الجميع نيام. كانت الحاوية الخاصة بمزج الزجاج على النار، وهناك مائدة خشبية بجانب الفرن، إنها المائدة نفسها التي يضع عليها "كرابيشكو" تماثيله بعد صنعها. كانت المائدة مغطاة بقماشٍ أبيض. نظرت "ماندالينا" حولها بارتياب، وعجزت عن تخمين ما سيحدث. كانت خائفة قليلًا، فحاولت توضيح خوفها لـ"كرابيشكو" وطلبت منه أن يحذر حتى لا تتأذى. طمأنها وأخبرها أنه لا داعي للقلق، وأنه سيبذل قصارى جهده لعلاجها. استجمعت

"ماندالينا" قوتها كما فعلت كثيراً من قبل، وتناست خوفها ثـم قـررت أن تطيـع أوامـر "كرابيشكو".

أولًا، أمرها أن تتعرى تمامًا.

رفضت فورًا.

- عليك التعري! ما من طريقةٍ أخرى!

كان "كرابيشكو" هائجًا.

لم يضطر إلى تكرار كلامه. كان "كرابيشكو" و"ماندالينا" يتشابهان في هذا الأمر.

خلعت ملابسها ثم صعدت فوق المائدة واستلقت على ظهرها، ثم باعـدت مـا بـين ساقيها، وأغلقت عينيها وفقًا لتعليمات "كرابيشكو".

بعد ذلك سألته ماذا بعد، فأخبرها أنه لا داعي لإغماض عينيها، بل مـن الأفـضل أن ترى ما سيجري. لأنه إذا صحَّتْ توقعاته، سيحدث أمرًا لم تـره مـن قبـل. وضـع وسـادةً تحت رأسها ثم وقف.

قالت "ماندالينا":

- إن كنت ستتعرى أنت أيضًا فأظن أن لديِّ فكرةٌ مبدئية عـن العـلاج الـذي تفكـر به. لكني جربت ذلك ولم ينجح، صدقني.

قال:

- كلا، لن أتعرى.

ثم أمسك ماسورةً حديدية طويلة ففزعت "مانـدالينا". لقـد ظنـت أن "كرابيـشكو" سيدخل الماسورة فيها من أسفل ويدفعها عن آخرها.

قال لها:

- خافي إن أردتِ! لن تخمني أبدًا ما الذي سيحدث.

لا يمكنها التخمين بالفعل.

وهذا ما حدث.

صعد "كرابيشكو" على كرسيٍّ خشبيٍّ صغير، والتقط الماسورة الحديدية ثم غرزهـا في الكتلة الزجاجية المنصهرة في الفرن وترك طرفها الطويل يخـرج مـن الجانـب الآخـر ثـم ارتدى نظارته الصفراء. بعد ذلك اقترب من "ماندالينا" وانحني بين ساقيها. انبعـث مـن داخلها بخارًا ملأ الغرفة. انتشر البخار في كل مكان واختلط بحرارة الفرن.

فجأة فتح "كرابيشكو" فمه ورفـع يديـه وبـدأ يتـنفس كـما يفعـل الغواصـون قبـل قفزهم إلى الأعماق. نعم، قبل أن يغوصوا.

سحب ثلاثة أنفاسٍ عميقة.

في النفس الأول أفرغ أفكاره من المشاعر السلبية.

في النفس الثاني أفرغ رئتيه من الهواء الفاسد.

في الـنفس الثالـث مـلأ صـدره بهـواءٍ صـافٍ نقـي مـن الجبـال العاليـة المغطـاة بالثلوج، ومن المروج المليئة بالأعشاب وغابات الفاكهة، ومـن أشـجار الـصنوبر المنعـشة الشاهقة.

حبس النفس الثالث وانحنى ما بين ساقيِّ "ماندالينا".

فتحهما بقدر استطاعته ثم وضع شفتيه علي أكثر أماكنها حميمية وظلامًا.

بعد ذلك أطلق نفسه تدريجيًا.

اندهشت "ماندالينا" عندما رأت معدتها تتحول تدريجيًا إلى كرةٍ كبيرة منتفخة بالهواء. شعرت بسكينةٍ خاصة ولذةٍ خالصةٍ. هذا كان أكثر إثارةٍ من كل المتع الحسية التي سمعت عنها أو جربتها. كانت لذة تفوق الوصف.

انتفخت معدتها وكأنها حامل في الشهر التاسع، ومع ذلك لا يملأها سوى الهواء. فتحت عينيها على وسعهما وكتمت ضحكها. استطاعت أن ترى فقط رأس "خرابيشكو" من موقعها. أما هو فأفرغ كل نفسه بداخلها ثم وضع إصبعيه عليها كي لا يتسرب الهواء. بدا وجهه أزرق اللون بسبب نقص الهواء.

بعد ذلك طلب منها أن تتنفس من أعماق معدتها فأطاعته. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة...

أمَّا "كرابيشكو" فظل يتنفس شهيقًا وزفيرًا بضع مرات حتى أفرغ رئتيه تمامًا، فتقلصتا كرئتي شخصٍ مصابٍ بالسل. احمر وجه "ماندالينا" ولم تعرف ماذا تفعل. كل ما استطاعت فعله هو اتباع التعليمات.

انحني "كرابيشكو" ما بين ساقيها مجددًا ووضع شفتيه وفتحهما. فجأة بدأ كل الهواء الذي نفخه بداخلها يخرج ويعود إلى صدره. امتلأت رئتاه مجددًا فأغلق فمه. أبعد "ماندالينا" والعرق يغمره، ثم صعد على الكرسي

الخشبي الصغير والتقط الماسورة الحديدية من الفرن مع كتلةٍ زجاجيـة منـصهرة كبـيرة وبدأ ينفخ.

نفخ "كرابيشكو" وكأنه آخر ما سيفعله في حياته.

كلما نفخ أشد، تحولت الكتلة الزجاجيـة إلى كـرةٍ زجاجيـة. وكلـما تحولـت إلى كـرةٍ زجاجية، ازدادت ظلمـة اللـون الأصـفر الـبراق والأحمـر والبرتقـالي. في البدايـة تحولـت الألوان إلى الأخضر ثم البني ثم البني الداكن الذي تحـول إلى أسـود ثـم مظلـم فمعـتم حتى أصبح حالك السواد.

واصل النفخ حتى لم تبقَ فقاعة هواءٍ واحدة في صدره، وعندما انتهى، أخرج الكتلـة الزجاجية ثم وضعها في دلوٍ مليءٍ بالرماد.

همس لها "كرابيشكو" وهو يشير إلى الزجاج الأسود في الدلو:

- هذا هو مرضك!

ثم فقد الوعي وغرق في خيالاته.

43



زار أقاربه في غفوته.

رأى كلبًا ينبح.

كان أسود اللون وضخمًا.

رأى مدينةً مشبعة بالدخان.

هناك أطلالٌ عملاقة في كل مكان.

كان الكلب والسكان يجرون بهلعٍ في الشوارع. بعضهم كان بلا بنطلونات، وبعـضهم كان نصف عارٍ.

أي مدينةٍ هذه؟ رأى في الخلفية ساعة المدينة مع عقاربٍ شبه محطمة. كان الكلـب الأسود يقفز فوق الأطلال.

سمع من بعيدٍ صفاراتٍ أشبه بعواء الذئاب.

كان النهر داميًا.

والمقبرة ممتلئة.

هناك لافتة تحمل اسم المدينة عند محطة القطارات.

كانت متهاوية، ولا يرفعها سوى مسمارٍ واحد.

مكتوبٌ عليها "سكوبيه".

بكى "كرابيشكو" حزنًا على مدينته.



44



غاب عن الوعي لفترةٍ طويلة.

كانت عيناه منتفختين بالدموع عندما استيقظ، وحكى ما رآه لـ"ماندالينا" التي كانت فزعة وعارية وتحاول إنعاشه بماءٍ بارد.

- يا لها من قصةٍ محزنة!

سألها "كرابيشكو" وهو بالكاد قادرًا على الكلام بسبب حزنه مما رآه:

- و.. ماذا عنكِ؟ كيف تشعرين؟

- أنا.. إنه شعورٌ رائع. أشعر بشيءٍ يدغدغني في معدتي، يا له من إحساسٍ غريب. لا أعرف كيف أشرح بالضبط ما حدث، فعيناي كانتا مغمضتين طوال الوقت. لكنه شعورٌ رائع ولا شك.

وهكذا تم شفاء "ماندالينا".

في الأيام اللاحقة قام "كرابيشكو" سرًا بإخفاء الكرة الزجاجية السوداء التي تحتوي على مرض "ماندالينا" في مكانٍ سري في قبو المنزل كي لا يجدها أحد. لا يمكن أن يسمح للكرة بأن تنكسر.

في الفترة التالية بدأت بطن "ماندالينا" تنتفخ مجددًا لدهشة الجميع. لكن هذه المرة كانت "حامل". افترض الجميع أن هذا حدث بينما كان يعالجها تلك الليلة التي علم عنها الجميع. قال أهل الخير:

- أن تكون حاملًا أفضل من أن تكون ميتة!

لم تبد "ماندالينا" منزعجةً على الإطلاق. لكن إن تمعن أحدهم خلف قناع الهدوء والجدية والعملية، سيلاحظ تعبيرًا شرسًا ومتوحشًا.

ولتصبح الأمور أكثر تشويقًا، كان "كرابيشكو" مرتبكًا من الموقف بأكمله، لكنه لم يفكر كثيرًا. أصبحت الأمور أكثر إرباكًا منذ أن تعافت من مرض معدتها الخطير. والأدهى هو أن الجميع صار يناديه بالـ"طبيب"، سواء من باب المزاح أم لا. أجبرتهما العائلة على الزواج سرًا. عارض "كرابيشكو"، لكن "ماندالينا" لم تكترث. تظاهرت أنها منشغلة تمامًا في المحل ولا تملك وقت فراغ. شعر كلاهما بالارتباك، وكذلك "جوسا راجوسا".

بأي حال، عادت الحياة لمسارها المعتاد. بدآ بجمع الأرباح وجذب محلهما الزبائن الأثرياء. عينا موظفين لمساعدتهما في البيع. لكن قوى "كرابيشكو" بدأت تخور. أصبحت عيناه ضبابيتين، وضعف بصره. والأسوأ هو أن كابوس المدينة المدَمرة يزعجه ويؤرقه. حتى حدث المحتوم.

45



قال "كرابيشكو" ذات يوم:

- سأعود!

بدا هذا التصريح بالنسبة لـ"ماندالينا" كهدير موجـةٍ عملاقـة تـتحطم عـلى صـخرة. تكررت الكلمات في عقلها، بينما تمسك فرشاة صغيرة وتزين تماثيل نمورٍ بنغالية زجاجية بالذهب.

كرر "كرابيشكو" بوجهٍ تلتهمه المخاوف والإحباط:

- قلت إنني سأعود!

وقفت "ماندالينا" ومسحت يديها في مريلتها الملونة، ثم أسدلت شعرها الـذي كـان مربوطًا على هيئة ذيل حصان وجلست على أقرب كرسيٍّ من "كرابيشكو"، ثم نظرت إلى عينيه مباشرةً، ما زالت تحمل فرشتها التي كاد الدهان الذهبي يجف من عليها.

سألته:

- ستسافر الآن؟

- نعم الآن! إما أن أعود أو أموت.

هكذا بدآ مشاحنة تحولت إلى شجار ثم إلى جدالٍ عنيف. أصرت "ماندالينا" على أن "كرابيشكو" لم يذكر شيئًا بخصوص السفر من قبل، كما لم يبدِ اهتمامًا بالعودة في السابق. والآن عندما بدأ العمل بالازدهار أخيراً يقذف إليها بالأخبار الكارثية. أخبرها "كرابيشكو" في بداية الجدال أن هذا السفر سيتيح له معرفة إمكانية توسيع عملهما في أماكن أخرى من أوروبا مثل "سكوبيه". سخرت "ماندالينا" من كل هذا وذكرته أن الأسود ما زالت تجوب هناك كما قال الرومان، وأنه لا أحد يموت من المرض أو الشيخوخة، بل في معركةٍ دامية. فكَّر "كرابيشكو" بأن الحياة ليست عادلة.

حاولت الاستمرار في هذا الجدال حتى يضطر "كرابيشكو" إلى إخبارها بأسبابه الحقيقية في العودة وعدم رغبته في البقاء، ومن الأفضل أن يخبرها إن كانت لديه نية في العودة أم لا.

امتلأت عيون "كرابيشكو" و"ماندالينا" بالدموع، بينما يتفاقم العراك. في هذه الأثناء جاء "أوتو" ليطمئن على سير العمل وفهم الموقف فورًا، فحاول تهدئة الوضع بسؤالهم ماذا جرى. سقطت الفرشاة من يد "ماندالينا" إلى صف الزجاجات التي تحتوي الأصباغ. أسرعت "ماندالينا" تمسك بالفرشاة فأسقطت الزجاجات وتحطمت إلى ألف قطعة.

انحنت "ماندالينا" و"كرابيشكو" لجمع القطع المكسورة... تلامست أيـديهما مـرةً أو اثنتين، بينما يجمعان الشظايا، لكن لم يتفوَّه أحدهما بكلمة.

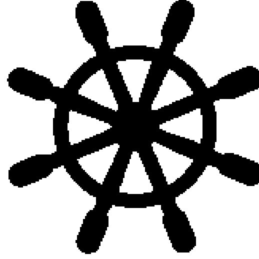
بعدما عرف "أوتو" بما حدث قال إنه توقَّع حدوث هـذا منـذ رأى "كرابيـشكو" أول مرة، وقال إنه يجب معالجة هذه الأمور بدلًا من التصدي لها.

- سأعود!

- ارحل!



46



عندما عاد "كرابيشكو" إلى وطنه كان يرتدي نظارةً زرقاء.

زوجته كانت بانتظاره إلى الأبد، كما تفعل كل النساء. تحـوَّل شـعرها إلى رمـادي في السنوات الماضية بسبب الإشاعة الخاصة بغرق "كرابيشكو" في البحر الأدرياتيكي.

اسمها "جولابيا".

ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ وأي اسمٍ قد يتماشى مع اسم "كرابيشكو"؟!

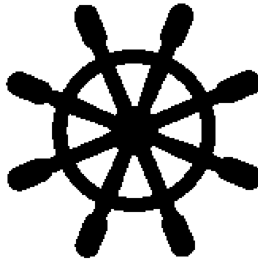
عندما رأته خلعـت وشـاحها وفكـت جـدائل شـعرها ثـم أجهـشت بالبكـاء. دخـل "كرابيشكو" منزله بالعديد مـن الحقائـب الخـشبية الـضخمة، ثـم خلـع نظارتـه وأخـذ يواسيها. بعد ذلك حمل طفلًا في السادسة.

ابنه "بريدان" الذي لم يتذكر والده.

لم يتفوهوا بكلمةٍ طـوال اليـوم، لا هـو ولا "جولابيـا" ولا حتـى الطفـل. فجمـيعهم مرتبكون من الموقف.

في المساء بدأ الجيران يقدمون التهاني في البيت الصغير في ضواحي "سكوبيه"، لدرجة أن "كرابيشكو" و"جولابيا" أجهشا بالبكاء.

وظلا يبكيان طوال الليل حتى جفت دموعهما.



47



حكى "كرابيشكو" للجميع ما رآه وكيف رآه في العالم الكبير.

رأى ممالك لا تُحصى يفصلها عن بعضها جبالٌ شاهقة لدرجة تمنع النسور من التحليق فوقها وتخطيها، أمَّا قممها فتغطيها الثلوج طوال العام. تجري الأنهار الباردة بين الجبال، وإن شربت منها ستسقط أسنانك من شدة برودتها.

- رأيت غابات صنوبر تصل أشجارها العالية لعنان السماء. لم يتمكن أحدٌ من تسلقها ليرى المشهد من أعلى!

رأى كنائس جميلة وكبيرة في القرى والمدن، أبراجها طويلة وتصل أيضًا لأعالي السماء...

قال أحد المستمعين:

- هل تصدقون ذلك؟ يبدو أن كل شيءٍ يشق السماء هناك!

- ... ونوافذهم مزينة بصورٍ ملونة. الناس متواضعون ومجتهدون، وكل شخصٍ يهتم بشؤونه الخاصة...

- هل لهم جيران؟

- ... أبقارهم بثلاثة أضعاف حجم أبقارنا، ويحلبونها دسمًا كثيفًا بدلًا من اللبن. أما خيولهم فكبيرة مثل خيولنا، لكن تغطي حوافرها الشعر.

- تدخن الزوجات السجائر في المساء...

- عارٌ عليهن.

- ... النساء هناك ربات بيوتٍ رقيقات. كلهن شقراوات مثل الروس، من شعورهن حتى أعينهن!

- هل هناك ثروات؟

- بقدر ما تشتهي! عليك فقط أن تجمعها.

- هذا صحيح! نحن جامعو ثرواتٍ مشهورون!

ثم تحدث "كرابيشكو" عن فصل الشتاء الأبدي وثلوجه اللانهائية. عندها يسلي الناس أنفسهم بربط لوحين من الخشب في أقدامهم اليسرى واليمنى، ثم يتسلقون أي منحدر ويتزلجون بالألواح. بين الحين والآخر يغرسون عصيهم في الأرض إلي جانبيهم تبادليًا ليدفعوا أنفسهم. يا للسرعة التي يتزلجون بها على الألواح! ويا للسرعة التي تمرق بها الخيول المنطلقة عبر جبال "ماريوبو"! والأغرب هو أن الكبار أيضًا بمن فيهم النساء يمارسون التزلج على الجليد، وكلهم يضحكون طوال الوقت. في صباح أيام

الأحد يقـوم الـساكنون في أعـالي الجبـال بـالتزلج عـلى الألـواح نـزولًا إلى الكنيـسة عـبر المنحدرات. ثم يصعدون إلى بيوتهم في المـساء بزلاجـةٍ حديديـة تجرهـا خيـولٌ ضـخمة وبداخلها السيدات والسادة.

- تبًا! لماذا لم نفكر في ذلك؟

- وهل تعلمت أي صنعةٍ هناك؟

- نعم، نعم...

- أي صنعة؟

- تعلمت فن النفخ في الزجاج المنصهر...

عندها توقف الناس عن الإعجاب بتلك الإمبراطورية العظيمة، لأنهـم لم يفهمـوا مـا يتحدث عنه. لم يعرف "كرابيشكو" كيف يشرح لهم الأمر، على الرغم من أنه ظل يفكـر في طريقةٍ لشرح هذا الفن لقومه قبل أن يبدأ رحلته. بعد ذلك سألوه عن ماهية صنعة النفخ في الزجاج. فأخبرهم أن الحرفيين يصنعون الأباريق والدوارق مـن الزجـاج ولـيس الفخار. أباريق ودوارق زجاجية.

عندئذ بدأ المستمعون بالمغادرة فيما أخذ آخرون يتساءلون:

- كان يمكنك تعلم صنع السروج أو الذهب ما شابه...

لم يفهموا لماذا قد يحتاج أي شخصٍ إلى صنع أباريق زجاجيـة فـيما يمكـنهم الـشرب من الفخار.

كانـت "جولابيـا" فخـورةً بقـصص زوجهـا، لكنهـا ذهبـت لعمـل شيءٍ في الحديقة لتظهر أنها ليـست مهتمـة بحـديث الرجـال. سـأل بعـض الحـضور

"كرابيشكو" إن كان ينوي تعريفهم بهذه الحرفة هنا في مقدونيا، على الرغم من أنهم ما زالوا يتساءلون عن أهميتها. كان سؤالًا حساسًا، فإجابته ستحدد إذا ما كان ينوي العودة شمالًا من حيث جاء أو البقاء في الوطن للأبد.

لم يجب "كرابيشكو" على سؤالهم. وقف وأعلن أنه سيكمل قصصه غدًا وأنه يريد الانفراد بزوجته.

سأله الزوار قبل أن يغادروا عن اسم هذه الإمبراطورية:

- أوروبا!

- يا للعجب!!!



48



ناما معًا هذه الليلة. "كرابيشكو" و"جولابيا".

ما زال جسدها قويًا ورشيقًا بعد ست سنوات بسبب عملها في المنزل والحقول. وهو أيضًا لم يترهل جسده، على الرغم من أنه مغطى بالندب والحروق. نام الطفل جوارهما ولم يشعر بشيء. صبغت النار المشتعلة وسط الغرفة كل شيءٍ باللون الأحمر القاني.

اشتبك جسداهما معًا وسألته "جولابيا":

- لماذا لا تخلع نظارتك؟

أطاعها وخلعها. وعلى ضوء النيران التي حاول الاختباء منها رأت البياض يكتسح إحدى عينيه تمامًا.

أجهشت بالبكاء وسالت دموعها وهي تقول:

- حبيبي "كرابيشكو" المسكين!

أخبرها "كرابيشكو" أنه بدأ يفقد بصره في "ميونيخ".

في معرضٍ للزجاج والأطعمة.

لاحظ عندها أن بصره ضعف في إحدى عينيه.

أخبره طبيبٌ متمرس أن عينه أُصيبت بمرض المياه البيضاء.

- مياه بيضاء؟

- مياه بيضاء.

- وما العلاج؟

- هناك بعض القطرات التي توضع في العين لتصفية العدسة.

لكنه لا يعرف إن كان يستطيع الحصول عليها. لا يهم، لأنه إن لم يستطع الحصول عليها سيصنع عينًا زجاجية. مع ذلك اعتاد العمل بعينٍ واحدة مؤخرًا.

لكن العمل بعينٍ واحدة أثَّر على عمله بالتحف الزجاجية. بعضها افتقد التناسق، وبعضها افتقد دقة اللون، فقلت المبيعات.

أخفى المشكلة لفترةٍ طويلة بعد معرض "ميونيخ"، وتظاهر أن كل الأمور على ما يرام خاصةً مع الناس الذين يعتمد عليهم. لكنه فقد روحه المعنوية. "لا يمكنك أن تخسر روحك، عليك معرفة ذلك". من الآن فصاعدًا سيصنع زجاجًا لا يحتاج إلى رؤية العينين المثالية. ولماذا يحتاج للعينين؟ "في الواقع، أعطانا الرب عينين كي نملك عينًا احتياطية إن فقدنا واحدة. وفي النهاية سأصنع لنفسي واحدة إن تطلب الأمر كما أخبرتك".

بعد وهلةٍ نهض "كرابيشكو" وحل الحزام العريض الذي ربط به صندوقًا خشبيًا صغيرًا يشبه حقيبة سفر. ثم أخرج العديد من الأشياء حتى وصل إلى قاع الحقيبة. ثم أحضر حقيبةً خشبية أخرى بحجم البطيخة، ووضعها على غطاء السرير الناعم يدوي الصنع، حيث ينامان. اتسعت عينا "جولابيا" وأطلت منهما نظرة تساؤل عن فحوى الحقيبة.

فتح الحقيبة ببطء وأخرج شيئًا ملفوفًا بقطعة حريرٍ حمراء.

أخبرها "كرابيشكو" أن تخمد النيران، فأطفأت الجمر وعادت للسرير.

عندئذ رأت أجمل شيءٍ في حياتها. أخرج "كرابيشكو" من المنديل الحريري كأسًا مذهلة مزينة بطيورٍ وصلبان زجاجية مختلفة الألوان. كانت تلمع كضوء النهار حتى أنارت وجه ابنهما النائم في الغرفة معهما. تمكّن "كرابيشكو" من رؤية الشامات في معدة "جولابيا" من شدة النور. سألته:

- ما هذا؟

- إنها كأسٌ أسرتُ فيها وهج الشمس والذهب. صنعت الكثير منها... لكن هذه هي الأجمل! إنها من أجلك.

أيقظ الضوء الطفل النائم، فاقترب من والديه متسائلًا:

- ما هذا؟

وضح "كرابيشكو":

- إنه وهج الشمس.

ثم أضاف قائلًا وهو ينقل بصره بين "جولابيا" و"بريدان":

- من حيث أتيت يسمون هذا "قمة الإنجاز الفني".

بعد الإفاقة من ذهـولهما الأول تحـسس الفتـى الزجـاج الأملـس بيديـه الـصغيرتين وسألته "جولابيا" إن كان قد جلب معه مالًا وكيف سيعيشان مستقبلًا.



49



امتلأ المكان بالمجارف وموازين الخيط "آلة الشاقول"، تناثرت قوائم الخشب وبُنيت السقالات. أعدت "جولابيا" وصديقاتها الطعام. كـان "كرابيـشكو" يغـيِّر نظاراتـه يوميًـا، ويجري هنا وهناك كـ"الفرقعلوز".

انتشرت أخبار عودته بسرعة البرق.

جاء العاطلون من جميع أنحاء البلدة.

فبلدتهم كانت صغيرةً حقًا.

جاء العاطلون من الضواحي القريبة للفرجة. كما أتى بعض الناس من "جورنو مـالو" و"دولنو مالو" و"تاركوفيسكو مالو" و"ميلتـشينو مـالو" و"سـتيفانوفو مـالو"... مـن كـل مكان في كل ضواحي المدينة. ثم جلسوا للمشاهدة.

شاهد العاطلون بناء فرنٍ ضخم يشبه أفران الخبز، فسألوه:

- لماذا تحتاج إلى هذا الفرن وهناك اثنان غيره وبمثل جودته في "باجيكو مالو" و"ديبار مالو"؟

لم يرد "كرابيشكو"، بل أمر بإشعال نارٍ ضخمة تفوق النار المستخدمة في أفران الخبز أربع مرات. ألقوا الحجارة والحطب الذي قطعوه من الغابة المجاورة في النار. ظلت النيران مشتعلةً طوال اليوم.

أحضر "كرابيشكو" حقائبه الخشبية بحلول الغروب.

سأل الأطفال:

- ماذا فيها؟

كانت الحقائب الخشبية الثلاثة مليئةً برملٍ عالي الجودة. ليس كرمل نهر "فاردار" المستخدم في المباني، بل أفضل كثيرًا وناعم كالغبار. تكفي أقل نسمة هواء للإطاحة به من شدة جودته. وضع الرمل في حاويةٍ خاصة، ثم أضاف بعض المكونات من الحقيبتين الأخريين. بعضها رمادية وبعضها بيضاء.

بعد ذلك التقط العديد من المواسير الحديدية وقام بتوصيلها بمهارةٍ لتصير ماسورة واحدة. ثم صعد على كرسيٍّ عالٍ ونادى العازفين قائلًا:

- اعزفوا! لكن بهدوءٍ شديد وكأنكم تعزفون تهويدةً أو أغنية أطفال.

وضع الماسورة في الحاوية وأخرج منها كرةً صغيرةً منصهرةً تراقصت على قمة الماسورة مثل ضوء مصباح الزيت.

التقطها ووضعها على شفتيه ثم نفخ.

صاح العاطلون بحيرة:

- عجبًا، عجبًا! علينا الاعتراف بأننا لم نرَ شيئًا كهذا من قبل!

قال أحد المعمِّرين:

- هذه سخافة يا أطفال! غاية السخافة!

اجتمع الأطفال لرؤية هذا العمل السخيف.

نفخ "كرابيشكو" بكل قوته.

سحب عدة أنفاسٍ قبل النفخ. سمَّى الأول "نفس البحيرة"، والثاني "نفس الجبل"، والثالث "نفس الأرض"، والسابع "نفس النبيذ"، والثامن "نفس النعيم"... إلخ، حتى وصل إلى النفس الخامس عشر.

ثم نفخ مرارًا وتكرارًا حتى تشكلت بيضةٌ زجاجية عملاقة بطول ذراع أمام العاطلين. بعد ذلك وضع "كرابيشكو" بمهارةٍ البيضة الزجاجية في قالبٍ معدني أخرجه مسبقًا من الحقيبة ثم غطَّاه بخفةٍ بالرماد.

- ماذا الآن؟

- ننتظر.

انتظروا يومين ثم شق "كرابيشكو" القالب ليفتحه في اليوم الثالث، وأخرج شيئًا نظفه من الرماد بحرص.

كانت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل تمامًا. بدا البدر لامعًا في السماء.

ما رؤوه تاليًا كان أجمل وأغرب شيءٍ وقعت عليه أعينهم. كان تمثالًا للعذراء.

كان مشعًا مثل مصباحٍ زيتي. ومع ذلك لا يوجد بجانبه مصباحٍ زيتي.

العجائز الذين ما زالوا يؤمنـون بـالمعجزات ركعـوا يـصلون. أمـا الـشباب فتراجعـوا، والأطفال غطوا أعينهم بأيديهم حتى لا يغشاهم الضوء.

- تجمعت أنوار السنة في التمثال. أنوار ثلاثمائـة وخمـسة وسـتين يومًـا مـن الـضوء محبوسةٌ هنا.

بعد ذلك انطوى على نفسه ولم يتحدث مع أحدٍ بكلمة واحدة.

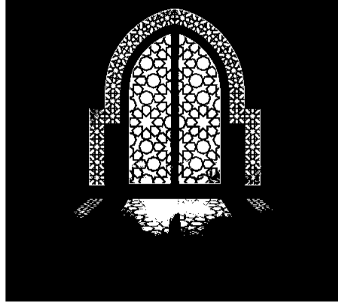
هرب بعضهم بسرعةٍ لأنهم شعروا بأن ذلك العمل ضار، بل هو سحرٌ ولـيس عمـل. شعر معظم الناس بالذهول الذي تحول فورًا للخوف ما إن مرت لحظات الإعجاب. إنـه خوفٌ مجهول الأسباب. ربما كان بسبب القوى الغامضة التي سيطرت على "كرابيشكو". لهذا تراجع الجميع بما فيهم الأطفال.

- لماذا لا تعود للبستنة وزراعة العنب للنبيذ؟ كنت ماهرًا حقًا.

لم يرد "كرابيشكو"، بل أحنى رأسه بصمت. عنـدما عـاد الجميـع إلى منـازلهم لتـولي شؤونهم، أخفى وجهه بيديه وتنفَّس باضطراب. ثم ربتت يدٌ صغيرة على شـعره. كانـت يد ابنه الصغيرة.

إنها أفضل لحظات حياته.

50



بعيدًا عن هناك.

عاش حرفيٌ خبيرٌ متخصصٌ في فن الزجاج الإسلامي، يدعى "شاكر موسى أوغلو". قضى طفولته يتدرب بصبرٍ على مهنة والده الذي تدرب في ورشة "محمد ديدي" خلال الأعوام الأخيرة من حكم وحياة السلطان "سليم الثالث" وأتقن صناعة زجاج "عين البلبل" في منطقة "إنجير كويو" بمدينة "بورصة". طلب الحرفي "شاكر" مقابلة مع رجلٍ عجوز يسمى "طاهر أفندي" المسؤول عن البلدة كلها.

قال "طاهر":

- عاد بالأمس صديقٌ عزيز عليّ من رحلةٍ طويلة. يُدعى "حافظ ديدي" وهو من أشد المعجبين بالفنون التركية والأجنبية. دومًا يحمل عند عودته أخبارًا جديدة عن الفنون، فهي شغفه الوحيد.

رقص قلب "شاكر" طربًا لسماع كلام "طاهر".

- قال إنه أثناء عودته توقف ليشرب فرسه السريع من نهر "فاردار". هل تعرف أين ذلك؟ أتعرف؟ سمع هناك عن رجلٍ مسيحي عاد من أوروبا الوسطى، وهو بارعٌ في صنع الزجاج الغربي. إنه فنان، وحالم، وخيالي. يمكنه صنع المعجزات!

صاح "شاكر" متعجبًا وتحمس كثيرًا وهو يقول:

- تعلم أن زجاج القماقم التركي المعروف بـ"زجاج بيكوز" مشهورٌ في كل أنحاء العالم، ليس فقط حتى الهند شرقًا، بل أيضًا في أوروبا كذلك. إضافة إلى أن صنعة الزجاج لدينا لها أصول عريقة في صناعة الزجاج تعود إلى زمن السلاجقة والبيزنطيين. أنت نفسك خبيرٌ في الزجاج الإسلامي "عين البلبل".

- هذا صحيح يا أفندي.

- ساعدت يداك الماهرتان في إعلاء شهرة الزجاج الإسلامي...

- صحيح يا أفندي...

- طرأت لي فكرة حالًا...

- ...؟

- ما رأيك في أن نُقيم مسابقة؟

- ماذا تعني يا أفندي؟

- هذا ما أعنيه. سنحضر هذا الرجل إلى "بيكوز"، وستتنافسان في صنع نموذجٍ زجاجي. لا أعرف ما هو بالضبط حاليًا، لكن لا بد وأن يكون شيئًا ذا قيمةٍ فنية. من يربح سيقابل السلطان العظيم شخصيًا. وأنت تعلم معنى هذا، الشهرة والنفوذ طوال العمر!

قال "شاكر" بحماس:

- أظنها فكرةً عبقرية، وأعرف مسبقًا أني الفائز لأنني طورت مؤخرًا أسلوبًا خاصًا بـ...

- لا تخبرني شيئًا الآن... لكن إن كنت مستعدًا للمنافسة الكبيرة، سأرسل رجالي ليحضروه فورًا.

- أرسلهم يا أفندي!



51



انطلق الرجال ووصلوا.

ركبوا خيولًا سوداء بسروجٍ بيضاء.

توقفوا في الطريق لشرب الماء.

تكونت المجموعة من شخصٍ يدعى "موسى" ومرافقيه وأحصنتهم.

مـروا بمـدنٍ صـغيرة وجبـالٍ عاليـة وحقـول عنـب وأخاديـد ضـيقة وملتويـة. نـثرت أحصنتهم الماء في كل مكان. قاس "موسى" طول نهر "فاردار" بعينيـه. كـان معـه عـشرة من الخيالة لا تهم أسماؤهم. كلما مروا بقريةٍ قام الأهالي بإدخال أطفـالهم إلى البيـوت ليحموهم. النساء اللاتي كن في الحقول اختبأن وسط الأعشاب الطويلـة، بيـنما تـسلقت الأطفال الأشجار.

اختفى الرجال تمامًا.

لا يوجد أدنى أثرٍ لهم. إما اندثروا أو هربوا إلى مكانٍ ما. توقف "موسى" ليرتاح في إحدى القرى التي بدت مهجورة. لم يجدوا فيها حركة ولم يسمعوا أي نفس. مستحيل أن يخمن أحدهم أن "موسى" كان يبحث عن الفن الخالص.

وصل المسافرون إلى "كرابيشكو" بعد عدة أيام.

كان في ورشته التي هجرها الزبائن والزوار منذ زمنٍ طويل لأن "كرابيشكو" لا يصنع سوى الأغراض التي لا طائل منها مثل الحلي والزينة.

أعلن "موسى" ومرافقيه:

- أتينا باسم الفن!

أجاب القرويون من مخابئهم:

- بالطبع أنتم كذلك! إنه باحثٌ آخر، الأول كان يدعى "كيسيدزيخا" وقال الشيء نفسه. تذكرون ما حدث بعدها...

- أنا أقول الحقيقة! جئنا بحثًا عن الفن...

بعد ذلك شرح "موسى" أن العظيم فلان الفلاني من كذا وكذا يدعو "كرابيشكو" لمنافسة ضد خبير صناعة الزجاج العظيم "شاكر موسى أوغلو".

سأل "كرابيشكو":

- ماذا لو رفضت؟

- لا يمكنك الرفض! لا يوجد فنان يمكنه رفض هـذا العـرض. الأمـر لا يتعلـق بالمـال، على الرغم من وفرته. ولا بالشهرة، على الرغم مـن أنهـا آتيـه لا ريـب. بـل هـو مبـارزة فنية.

رد "كرابيشكو":

- الفن لا يعترف بالمنافسة.

- هذا صحيح، لكنه يعترف بالخبرة، وأنت خبير فقط في تشكيل الزجاج على الطـراز الغربي. هل تمنيت من قبل أن تفهم أساليب صناعة الزجاج الشرقي؟

اعترف "كرابيشكو" لنفسه بأنه شعر بالفضول. بأي حـال، مـا باليـد حيلـة. أدرك أنه سيحصل على الشهرة والنفـوذ إذا مثُـل بـين يـدي الـسلطان، بالإضـافة إلى المـال الوفير. كما أن الرحلة مدفوعة النفقات. لهذا قرر القبـول بـالطبع. باختـصار.. عجـز عن منع نفسه.

هذه المرة ودَّع "كرابيشكو" "جولابيا" وأخبرها أنـه مـسافرٌ في رحلـة عمـل وسـيعود قريبًا، وأن فلان الفلاني شخصيًا من بلاد كذا وكذا استدعاه من أجل عمل كذا وكذا.

فرحت "جولابيا" لأن زوجها مشهورٌ جدًا، فلم تسبب متاعب.

أيقنت أنه سيعود هذه المرة.

"بيكوز" ليست بعيدة جدًا.

أمسكت يد "بريدان" الصغير وحثت "كرابيـشكو" عـلى الرحيـل قائلـة: "اذهـب!"، بينما بدأ الصغير يبكي.

امتطى "كرابيشكو" حصانه ونظر إليها مرةً أخيرة قبل رحيله.

لم يعرف لماذا.

مشهد الوداع مجددًا. "جولابيا" والصغير بجانبها يودعانه بصمت...

لن ينسى "كرابيشكو" هذا المشهد قط.



52



لم يكن أسلوب "شاكر" يختلف كثيراً عن أسلوب "كرابيشكو" في صناعة الزجاج. ميزته الأساسية كانت تقنية تنفسٍ خاصة. طلب "شاكر" تأجيل المنافسة إلى ما بعد رمضان، لأنه رغب بتطهير روحه، مثلما يفعل "كرابيشكو". الفرق بينهما هو أن تقنية "كرابيشكو" تعتمد على الطاقة الكونية الخالصة، بينما يعتمد "شاكر" على أدعية من القرآن. ميزة "شاكر" الحقيقية هي تقنيته الخاصة بالسقوط في حالة ما بين الوعي واللاوعي، وهي تقنية تعلمها من الدراويش. هذا شرحٌ مبسط للأمر. في صباح عيد الفطر يكون جسده وروحه في أنقى حالتيهما، فيبدأ "شاكر" بالدوران طوال النهار تقريبًا. وعندما يصل إلى حالة الوعي واللاوعي يبدأ بالنفخ في الزجاج المنصهر بمساعدة اثنين من تلاميذه ليصنع أنقى الزجاج على حد قوله. بصراحة، لقد طبَّق هذه التقنية في صناعة العديد من الأشياء التي جعلته شهيراً في تركيا بصفته صانعًا للزجاج الإسلامي مثل زجاج "عين البلبل". أما باقي الأمر فيتعلق بالمهارة والكثير والكثير من الخيال.

أما الألوان فهي مسألةٌ أخرى تمامًا.

وفقًا لكلام "شاكر"، يجب أن تكون الألوان دومًا حقيقية ونابعة من رمال البحار والمحيطات فقط. نالت كؤوسه الضخمة وأطباق تقديم الطعام رضا شيخ الإسلام مفتي الإمبراطورية العثمانية والسلطان نفسه. وكذلك فعلت الصفائح الزجاجية المسطحة التي مهد بها الشيخ قصره بالكامل، وأيضًا المزهريات النادرة والأكواب التي يحب الشيخ الشرب منها.

قال "شاكر":

- قد تنهار الممالك، لكن الفن ينجو.

التزم "كرابيشكو" الصمت، فهو لا يعرف التركية.

تحدث الأتراك الفرنسية والألمانية، لأنهم درسوا في الخارج. بأي حال، لا يحتاج "كرابيشكو" للتحدث أصلًا.

بصراحة.. لا يملك "كرابيشكو" أي تقنية. بالنسبة للحكايات الدائرة عن طاقته الكونية، كان مدركًا تمامًا أنه سيعجز عن وصف أو تفسير هذه التقنية إن سأله أحدهم. "أوتو" كان بارعًا في هذه الأمور، بعكس "كرابيشكو". لذلك كان مقتنعًا أنه لا يجيد أي تقنيةٍ على الإطلاق بخلاف حدسه الذي يعتمد على الزمان والمكان. راوده الخوف، بينما يقيِّم نفسه، فلقد أدرك أنه اعتاد شرب النبيذ قبل نفخ الزجاج. لكن حالته الخاصة بين الوعي واللاوعي ليست بسبب السكر، بل نقص الأكسجين في الدماغ. للمرة الأولى في حياته يشعر بالخوف، لأنه واجه منافسةً مهمة جعلته يفكر بشأن قوته وقدراته. تذكر تعليمات "أوتو" لهذه المناسبات، واستجمع شتات نفسه.

بدأت المنافسة بعد رمضان مباشرةً.

لكل متنافسٍ فرنه الخاص، ولهما حرية اختيار الخامات. تباعدا عن بعضهما بمسافةٍ تعادل بلدةٍ متوسطة الحجم.

بدأ "شاكر" قبل "كرابيشكو" بوقتٍ طويلٍ.

في اليوم الأول قام بالدوران، في اليوم الثاني حقق الحالة التي يسميها "سطح الزجاج"، وفي اليوم الثالث نفخ.

أما "كرابيشكو" فقد ظل يشرب حتى الثمالة.

أشعل مساعدوه نارًا مثالية، وأعدوا كل شيءٍ بأفضل ما يكون. كان القمر بدرًا مجددًا.

استلقى "كرابيشكو" على ظهره واضعًا يديه تحت رأسه. فكَّر في الحدائق وحقول العنب التي هجرها، وفي "أوتو" و"ماندالينا". فكر كثيرًا بـ"ماندالينا" حتى اضطربت أنفاسه. يعلم الرب لماذا دمعت عيناه. فكر بـ"جولابيا" فشعر بالندم. قال لنفسه بينما يتذكر كابوسه في "ميونج": "على الأقل المدينة سالمة. حمدًا لله!".

ثم وقف ودون سابق إنذار التقط ماسورةً حديدية طويلة ونفخ في الكتلة الزجاجية بكل قوته.

تكونت كرةً زجاجية عملاقة عند طرف الماسورة. فأخرج الماسورة من الفرن إلى ظلمة الليل مباشرةً، وعلَّق الكرة تحت أشعة القمر مباشرةً ثم أمَّنها وتركها لتبرد.

بدأ يشكلها بكماشته بعدما بردت قليلًا. وعدما انتهى من عمله ترك قطعة الزجاج في ظلام الليل حتى تبرد تحت ضوء القمر الصافي.

بعد ذلك شرب لترًا من النبيذ وقال للمنظمين إن نموذجه بمثابة قطعةٍ من الليل مليئة بضوء القمر، ولا بد أن يجف تحت أشعة القمر فقط. قال أحد الخبراء في تبريد الزجاج إن هذا مستحيل، لأنه سيستغرق أيامًا إن لم يكن أسابيع أو حتى شهور.

قال "كرابيشكو":

- لا أكترث أبدًا!

ثم ذهب لينام.

حقًا! من أين جاء "كرابيشكو" بالشجاعة في لحظة ضعفه لمعارضة الجميع؟ كان يمكنه العمل في فترة تطهير الروح المسيحية مثل زميله، لكن هذا سيضطره للانتظار طويلًا والمنافسة تشترط التزامن وإلا ستفقد قيمتها. لهذا قبل الموعد على مضض. أمَّا ما يخص تبريد الزجاج، فلن يتزحزح عن قراره أبدًا.

طلب "كرابيشكو" ثلاثة أشهر لعملية تبريد الزجاج.

من الغريب أن هذه هي المدة التي طلبها "شاكر" بالضبط.

تصادق "كرابيشكو" مع "شاكر" خلال الوقت الذي استغرقه الزجاج ليبرد، لدرجة أن "شاكر" قرر أن يريه الأماكن العجيبة في أسيا الوسطى بشرط أن يخبره "كرابيشكو" عن خبراته العجيبة من وسط أوروبا

وبشرط أن يظلا صديقين مهما كانت نتيجة المنافسة. وهذا الشرط الأخير بـدا مـستحيلًا بالطبع.

قال "كرابيشكو":

- موافق، على الرغم من أنني سأتمكن مـن التعبـير عـن نفـسي جيـدًا كـما يفعـل الفلاسفة.

في الأيـام التاليـة أظهـرا قلـيلًا مـن الغـيرة الفنيـة، وتجـولا في أسـواق الإمبراطوريـة العثمانية معًا، وشاهدا الأشياء النادرة المصنوعة من زجـاج "بيكـوز" بغـرض الإضـاءة في مدينـة "قونيـة"، كـما شـاهدا الأشـياء المخصـصة للاسـتخدام الـليلي يوميًـا في مدينـة "كابادوكيا". زارا أطول المآذن في العالم. وسارا كثيرًا في الصحراء العربية الواسعة ليتنفـسا هواءً جافًا مغبرًا. كما زارا مدن دمشق والموصـل وسـامراء وبغـداد، واسـتمرا جنوبًـا إلى مكة وعدن. ظلا يسألان الناس طوال الطريق إذا ما سمعوا حكاياتٍ عن الزجاج.

رد بعض العرب الذين قابلوهم في الطريق:

- بالطبع سمعنا!

وانطلقوا دون تردد يروون قصة السلطان الذي يملك بنتًا باهرة الجمال. فـأمر ببنـاء قلعةٍ تسكنها لحمايتها من نظرات الرجـال غـير الجـديرين برؤيـة جمالهـا. وقـع رئـيس مهندسي القلعة في غرام ابنـة الـسلطان، فقـرر بنـاء القلعـة مـن الزجـاج كي يراهـا مـن الخارج في أي وقت.

قال العرب:

- ولبناء القلعة استدعوا كل نافخ زجاج في آسيا الوسطى مع كل الحرفيين الخبراء والفنانين. وبنوا ألف فرن لصهر الزجاج. سعد السلطان بشدة وكافأ المهندس المعماري بسخاء، فهو لم يُرِ السلطان القلعة بنفسه. ثم أمر بحبس الآنسة الشابة في القلعة فورًا، عاشت الشابة هناك مخفية عن أعين الناظرين ما عدا المهندس المعماري والمارة الطيبين.

وكما يحدث غالبًا، عرف السلطان بأمر القلعة وقرر رؤيتها بنفسه ليتأكد من الشائعات. ذات ليلةٍ ارتدى ثياب تاجرٍ ثم مر بالقلعة. وقف السلطان في الخارج ورأى ابنته تمشط شعرها والمهندس المعماري يتأملها بانبهار. اشتعل غضب السلطان وأمر بهدم القلعة على رأسي العاشقين. أراد معاقبة ابنته والمهندس لأنهما أخفيا الأمر عنه.

يُقال إنه حين هدم القلعة بكى نافخو الزجاج لدرجة أن نحيبهم وصل للهند. رأوا أثناء بكائهم العاشقين متعانقين. وعندما انهارت القلعة أخيرًا ظهر ثعبانان زجاجيان يغوصان في رمال الصحراء الحارة. منذ ذلك الوقت ادَّعى كثير من رحالة الصحراء أنهم رأوا آثارًا متشابكة لثعبانين زجاجيين على الرمال.

صاح "كرابيشكو" بسرور:

- يا لها من قصةٍ جميلة! لكنها حزينة بالطبع. حزينة جدًا.

قال الرواة:

- جاء دورك لتروي قصة! أخبرنا عن الأماكن التي أتيتما منها.

بدأ "كرابيشكو":

- من حيث أتيت يمكن رؤية الجبال متغيرة الألوان!

- لم نسمع قط عن جبالٍ تغير ألوانها!

- إنها خضراء في الصيف، وتمتلئ أشجارها بالأوراق. وتكون بيضاء في الشتاء وتكسوها ثلوجٌ كثيفة.

- الناس الذين أتوا من بلادك سابقًا أخبرونا عن الثلوج. يقولون إنها تشبه رمال الصحراء ما عدا أنها بيضاء وباردة، وكأنها رملٌ أبيض وبارد. وقالوا إنه سريع الذوبان. أخبرنا بشيءٍ آخر!

أخبرهم "كرابيشكو" عن الناس الذين يعيشون على المنحدرات الشمالية العالية في وسط أوروبا. إنهم شعب الثلوج الذين يرتدون جلود الدببة، ويضعون أغصانًا متشابكة مثل المجارف في أقدامهم ليتحركوا بسهولة وسط الثلج دون أن تنغرس أقدامهم فيها. يشرب الناس في المدن الصغيرة مشروباتٍ دافئة محضرة بماء الجبل النقي، وعصائر ساخنة مصنوعة من العنب الأبيض. عادةً ما يفقد الناس صوابهم أو يصابون بالارتباك من شدة سخونة المشروبات. كل شيءٍ في وسط أوروبا يتسم بالتوسط تيمنًا باسمها، كما هو الحال في آسيا الوسطى!

ثم أخبرهم أن سكان هذه المناطق يتسلون بالتزلج على الثلوج باستخدام الألواح الخشبية. قال العرب إن الأمر مشابه لما يفعله أطفالهم بالتزلج على الكثبان الرملية.

- عندما نتأمل في الأمر سنلاحظ تشابه الأوضاع ما عدا الألوان!

بعد ذلك استعد الجميع للمغادرة.

سافر "كرابيـشكو" و"شـاكر" لمـدة شـهرٍ آخـر، ووصـلا إلى جزيـرة "كرمـان" وإقلـيم "مكران" ومحافظة "سيستان". عندها قررا العودة لأن الزجاج قد برد حتمًا.

في طريق العودة وعدا بعضهما ألا يسمحا للحقد والحسد بتـدمير صـداقتهما بغـض النظر عن نتيجة المنافسة. قال "شاكر":

- بالمناسبة، هل يمكن أن تخبرني الآن ماذا صنعت؟

- لن أخبرك! أخبرني أنت!

- لن أخبرك أيضًا. أخبرني أولًا!

- لن أخبرك أولًا. أخبرني أنت!

- لا، أنا...

ظلا هكذا طوال طريق العودة.

53



وصلا في الوقت المناسب لحفل الاستقبال.

برد الزجاج.

وهدآ.

وصل "شاكر" ومعه حقيبة مغطاة بالذهب يحملها مساعداه.

وصل "كرابيشكو" بصندوقٍ خشبي صغير.

وضعا صندوقيهما عند قدمي الأفندي.

حضر وزراء الثقافة والعلوم والتعليم، كما حضر مندوب العلاقات الأوروبية.

قال "طاهر" آمرًا:

- اقتربا من فضلكما.

اقتربا.

- أريانا ما صنعتما بعد انتظار ثلاثة أشهر!

انحنى "شاكر" للجمهور بأقصى ما يستطيع بحيث عجز عن الانحناء أكثر. وعندما استقام فتح غطاء الصندوق.

قام "كرابيشكو" بالمثل احتذاءً بتقاليد المسلمين الأتراك. فتح غطاء صندوقه أيضًا. اقترب الأفندي واندهش بشدةٍ مما رآه، لكنه ليس الوحيد من أصابه الذهول، بل أيضًا "شاكر" و"كرابيشكو" وجميع المسؤولين والوزراء والدارسين والمستشارين وكل من حضر حفل الاستقبال تلك الليلة.

باختصار، أحاط الذهول بكل إنسان في القاعة.

كلا الخبيرين عملا باستقلالية، وصنع كلٌ منهما كرةً زجاجية شفافة ونقية تمامًا بحجم بطيخة ناضجة متوسطة الحجم.

ظن الجميع بمن فيهم "شاكر" و"كرابيشكو" أن كلًا منهما عين جاسوسًا ليخبره ماذا يصنع الآخر فيقلده. هكذا ظن الأفندي أيضًا لكنه لم يقل شيئًا، بل عاد محبطًا إلى مقعده المريح المليء بالوسائد وكأنه عرش السلطان. لم يتفوه بكلمة وظل ينظر بحدةٍ إلى "شاكر" و"كرابيشكو".

قال آمرًا بعد صمتٍ طويل:

- فسرا عملكما!

التقط "شاكر" كرته الزجاجية بحرص، وكأنه ندفة ثلجٍ أو ريشة. لم تهتز يداه مطلقًا. كان هادئًا وثابتًا ومركزًا. لم يجرؤ أحدٌ في القاعة على التنفس، وهم مشتاقون لمعرفة شيءٍ مميز عن الكرة الزجاجية التي تبدو عادية.

قال "شاكر":

- لقد أودعت خبرتي الفنية التي اكتسبتها على مدى سنوات عديدة في هذه الكرة الزجاجية، وهي مصنوعة من زجاجٍ أرق من فقاعة الصابون.

صاح الحضور متعجبًا:

- عجبًا!

ثم أضافوا فورًا:

- أثبت ذلك!

أخرج "شاكر" من جيبه مروحة وفتحها. ثم فجأة ولدهشة الجميع أسقط الكرة من يده.

بدأت الكرة تسقط أبطأ كثيرًا من سرعة الزجاج. بعد ذلك قام ببعض الحركات الماهرة ووضع المروحة تحت الكرة الزجاجية ولوح بها حتى بدأت الكرة تطفو للأعلى بسبب تيار الهواء الذي تصدره المروحة.

كرة زجاجية تطفو في الهواء!

قال "طاهر" بتعجب:

- عجبًا! عجبًا! لم نرَ شيئًا كهذا في حياتنا قط! إنه زجاجٌ أخف من فقاعة الصابون! لم يصل أحدٌ لهذه الدرجة من المهارة في العالم كله!

انتشرت همهمات الموافقة بين الجمهور وسمعها كل الشيوخ والوزراء المجتمعين في القاعة. أعاد "شاكر" كرته إلى حقيبته بحرصٍ حتى لا تنكسر.

اتجهت أنظار الحضور إلى "كرابيـشكو" الـذي شرد ذهنـه واسـتغرق لحظـاتٍ حتـى انتبه إليهم. التقط كرته الزجاجية وقال:

- لقد أودعت خبرتي الفنية التي اكتسبتها على مدى سنوات عديـدة في هـذه الكـرة الزجاجية. وهي مصنوعةٌ من زجاجٍ أرق من فقاعة الصابون.

انطلقت ضحكاتٌ مدويةٌ في القاعة، فما قاله دليلٌ على أنه المقلد. صاح الجمهور:

- نعـرف ذلـك بالفعـل! والآن سـتخرج "مروحـة" وترينـا كرتـك الأرق مـن فقاعـة الصابون وهي تطفو في الهواء. لقد رأينا ذلك بالفعل أيها الفنان العزيز!

عندما بدأت تخفت الضحكات رفع "كرابيشكو" الكرة إلى ما فوق رأسه ومد ذراعيه عن آخرهما كي يرى الجميع أن شفافيتها تصل لدرجة الاختفاء.

ثم...

ثم قذف الكـرة الزجاجيـة إلى الأرض بكـل قوتـه. أمـام أعـين الجميـع قـذف الكـرة الزجاجية على الأرضية المدهشة المصنوعة مـن الرخـام العـربي الـذي يـشبه الحديـد في صلابته. يقـال إنـه يـستطيع احـتمال سـير مائـة فـارسٍ بكامـل عـدتهم دون أن يـصاب بخدش. انتفض الجميع بترقبٍ وتجمدت وجوههم من الخوف فيما يتوقعون أن تنكسر الكرة وتتناثر مليون شظيةٍ من الزجاج.

لكن صدمتهم تعاظمت عندما لم تنكسر الكرة، بل عندما تقافزت عدة مـراتٍ قبـل أن تتدحرج تحت قدمي الأفندي. ارتفع حاجباه بذهول والتقط الكرة، فارتبك عنـدما لم يشعر بوزنها مطلقًا. فحصها قبل أن يلقي بها بعيدًا ليجرب. لم تنكسر أيضًا، بل تقافزت بضع مرات ثم توقفت في نهاية القاعة.

ابتسم الجميع فجأةً ابتساماتٍ عريضة.

عاد الأفندي لمقعده وقال مبتسمًا:

- أعلن أن هذه المنافسة انتهت بالتعادل. أعلن أن الخبيرين فائزان.

لكن "شاكر" هو من سيمثل أمام السلطان لأنه من يجيد التركية، فاللغات تحمل أهميةً كبيرة هذه الأيام.

بدأ "كرابيشكو" بالفعل يفكر في وطنه.



54



- علِّمني صنع زجاج "عـين البلبـل"، وسـأعلمك صـنع الزجـاج المـشبك الأحمـر مـن منطقة الغابة السوداء الألمانية.

هذا ما قاله "كرابيشكو" من منطقة "تشالو" إلى "شاكر" من منطقـة "بيكـوز"، وقـد قبل العرض بسرور.

تباحثا معًا لفترةٍ طويلة وهما يتمشيان على ضفاف نهر الفـرات ويـشبكان أيـديهما خلف ظهريهما، وكأنهما مفكران عظيمان يتبادلان الأفكار حول مستقبل الكون.

تمشيا بين النـاس، لأنـه كي تـصنع زجـاج "عـين البلبـل" عليـك فهـم الـروح البـشرية والاختلاط مع الناس الذين يقدسون العندليب وكأنه طائر ملكي، هذا ما قالـه "شـاكر". بما أن "كرابيشكو" يعجز عن التواجد في نهر الفرات والجبل الأسود والغابـة الـسوداء في الوقت ذاته، يمكنه فقط أن يشرح لـ"شاكر" أسرار صنع الزجاج المشبك بطاقة التنفس.

بعد ذلك بنيا فرنًا صغيراً لـصهر الزجـاج، وقـضيا وقتًـا طـويلًا يـتعلمان مـن خـبرات بعضهما.

وأخيراً عاد "كرابيشكو" إلى وطنه.



55



بمجرد أن ظهر في ضواحي "سكوبيه" هرب الناس منه.

الأطفال هم أول من هرب.

كانوا يلعبون في المروج المترامية كما رآهم في أحد أحلامه، لكنهم تبادلوا النظرات ثم جروا حين رأوه.

بعد ذلك هربت بعض الجدات أيضًا.

كن يجلسن على مقعدٍ خشبي أمام أول منزلٍ في أطراف الضاحية، ليدفئن أجسادهن الواهنة بأشعة الشمس الهادئة وينتظرن مسافر عابر ليسألنه بالنظر أو الكلام عن وجهته وسبب مجيئه. كن ثلاث جداتٍ متشحاتٍ بالسواد. نهضن حين رأين "كرابيشكو" وتراجعن خلف بوابةٍ خشبية ضخمة. أصدرت البوابة صريرًا حين أغلقنها خلفهن.

وقف عن بعد عدة رجال ظهورهم عارية ومحترقة من الشمس. كانوا يجذون العشب في الحقول. شاهد "كرابيشكو" الأطفال الذين هربوا منه يسرعون إلى الرجال. توقف الرجال عن العمل وسندوا مرافقهم على المناجل، بينما يستمعون إلى الأطفال الذين أشاروا إلى الرجل الذي يتوغل في الضاحية بصمت.

رفع الرجال أيديهم لحماية أعينهم من الشمس، وعندما رأوا "كرابيشكو" تركوا المناجل والتقطوا قمصانهم وساروا نحو الأفق الأحمر أبعد ما يكون عنه.

القليل من السكان لم يفروا من شيءٍ في حياتهم قط، لأنهم اعتادوا أن يفر الآخرون منهم. لكنهم فروا هذه المرة. ليس بسرعةٍ كبيرة حتى لا يبدون جبناء، وإن كانت كل حركاتهم تدل على الهروب. كانوا جالسين في بار للمسافرين على الطريق ويمسكون بمسابحهم. بدوا أناس محترمون يتناقشون في أمرٍ ما. لكن عندما رأوا "كرابيشكو" همس أحدهم للاثنين الآخرين ثم نهض ثلاثتهم وركبوا أحصنتهم بصمتٍ في الاتجاه المعاكس لـ"كرابيشكو".

غادروا المكان.

ابتعدوا.

لم يكن هناك من ينتظر "كرابيشكو" عند عودته إلى بيته.

البيت ما زال موجودًا بطابعه ونوافذه الملونة وشرفته العالية.

لكن لم يخرج منه أحد.

بدا "كرابيشكو" أشبه بصغير دبٍ تائه في الغابة. الأزهار الملونة التي كانت متدلية بجمالٍ من النوافذ مثلما في ألمانيا أصبحت الآن ذابلة ومذوية. سيقانها الصغيرة لم تعد قادرة على التشبث بالتربة الجافة الضعيفة.

نزل عن حصانه وربطه في شجرة كمثرى سقطت كل أوراقها أثناء غيابه.

فكر "كرابيشكو": "هذا غريبٌ جدًا، ما زال الوقت مبكرًا على الخريف".

وجد الكثير من شظايا الزجاج والفخار متناثرة على السلم.

استدار لينظر خلفه، فلم يجد مخلوقًا. لا يوجد سوى صوت إغلاق الشبابيك.

تقع المقابر على التل الذي خلفه. بدأت أجراس الكنيسة ترن والرب وحده يعلم السبب. لا يوجد أي شخصٍ بالكنيسة، لم يقابله سوى صفير الريح التي تمر بالصلبان الحجرية فتزيل عنها الغبار.

دخل القس إلى الكنيسة الصغيرة، ثم خرج لمقابلة الأطفال الذين ظلوا يركضون من منزلٍ إلى آخر ليعلنوا عودة "كرابيشكو".

فتح "كرابيشكو" باب منزله ودخل.

لم يرَ سوى الظلام.

56



قال له العديد من أهالي بلدته ومن بينهم أعز أقاربه:

- عزيزنا "كرابيشكو"! يحزننا كثيرًا أن نبلغك جميعنا بأمرٍ ما كي لا يلام أحد. لقد صعدت "جولابيا" إلى السماء وأصبحت حمامة.

لم يفهم "كرابيشكو" أسلوب رفاقه في الحديث، فطلب المزيد من التوضيح. وكلما شرحوا أكثر، انتفض قلبه وازداد ألمه. شعر أنه سيعجز عن كبح دموعه وسينهار باكيًا كالطفل الصغير، بينما يستمع إلى رفاقه وهم يشرحون كيف صعدت "جولابيا" إلى السماء.

- تعرفون أنني لست بارعًا في الكلام المنمق، ولا أجيد التفكير أو التعبير. لا تعتمد صنعتي على الكلام، بل المشاعر. لذلك توقفوا عن الحديث الغامض وأخبروني ماذا حدث لـ"جولابيا" وكيف صعدت إلى السماء. هذا ما حدث..

بعد رحيل "كرابيشكو" بعدة أيام وتخليه عن طموحاته الفنية العالية ومثالياته، هجم فجأة لصوصٌ مقنعون على منزله ليخيفوا "جولابيا" ويجبروها على إعطائهم الكأس المشعة المزينة بالجواهر التي أحضرها معه من الشمال.

- لماذا لم تعطهم إياها؟ كنت سأصنع لها غيرها.

- لا، أقسمت "جولابيا" بحياتها أنها لن تخبرهم بمكانها. ليس بسبب قيمتها المادية، بل لأنها تذكرها بك. كما أخبرتهم أنها ليست متأكدة من عودتك، كما كانت عند رحيلك أول مرة. لذلك أخبرت اللصوص أن ينسوا خططهم الدنيئة لأنها لن تخبرهم بشيءٍ. بالطبع أخذ اللصوص كلامها على محمل الجد، لكنهم لم يتخلوا عن خططهم الشريرة. بل بالعكس! حتى إنهم اعتدوا عليها، حتى بعد أن أوضحت لهم أنها لا تمانع قتلهم لها، لكننا نود إخبارك أنه على الرغم من هذه المأساة البشعة التي ألمت بك وبنا جميعًا، نحن واثقون أنها في السماء الآن وروحها في الجنة. سيعيدها الرب إلى الأرض على هيئة حمامة. وكلما رأيت حمامة اعلم أنها زوجتك "جولابيا" حتمًا. فهي لم تُسمَّ "جولابيا" - حمامة بالمقدونية - من فراغ. بالإضافة إلى أن ابنك "بريدان" نجا لأنها أخفته جيدًا مسبقًا.

غرق "كرابيشكو" في حزنٍ شديد. حزنٌ عميقٌ كالبحار والمحيطات، وثقيلٌ كالجبال. في المساء بدأ بالنحيب، بينما يجمع شظايا الزجاج المتناثرة في كل مكان. بكى بهدوءٍ وألم دون أن يراه أحد. جمع الشظايا في منديلٍ كبير مع دموعه المنهمرة. كانت القطع متنوعة. هناك شظايا نماذج مزخرفة، وزجاجٍ وملون، ونوافذ مصنوعة للجيران، ومصباحٍ زيتي، وحلي غريبة لا غرض منها، كريستالات مضيئة لإنارة الغرف. عندما جمع كل القطع ربط المنديل ووضعه في إحدى الحقائب.

أغلق الحقيبة وانتظر الفجر.

57



أعلن "كرابيشكو":

- سأعود للشمال!

هناك رجلٌ حكيم في بلدته معروف بـ"المعمِّر"، يقال إنه شهد كل حادثة في التـاريخ الحديث والمستقبل البعيد. قال لـ"كرابيشكو" إن مـا يعتـبره شـمالًا قـد يعتـبره آخـرون جنوبًا، ولهذا يمكن الاعتبار أنه قد وصل بالفعل ولا داعي للسفر.

من الواضح أن هذا الفكر الحكيم أكبر من اسـتيعاب "كرابيـشكو"، لهـذا لم يعـارض الرجل العجوز الذي واصل محاولة إقناعه، أو إثنائه، تحريًا للدقة:

- بالإضافة إلى أن الحدائق الواسعة وحقول العنب عند نهر "فاردار" بانتظارك هنـا. يمكنك العودة إليها، أو بالأحرى البقاء فيها.

- هذا المكان جافٌّ جدًا!

- سيحل موسم المطر قريبًا!

- لا أعني أنه بلا ماء، بل بلا أحلام. لا يوجد أحلام! أحلام الناس بسيطة للغاية، وتصيبهم المآسي دائمًا. إنهم لا يموتون من المرض أو الشيخوخة، بل يموتون بوحشية.

أجاب عجوز القرية:

- أنت مخطئ يا بني. لو كنت محقًا لما نجونا لآلاف وملايين السنين.

لكن "كرابيشكو" لم ينتبه لكلماته الأخيرة. كل شيءٍ أصبح مشوشًا في عقله، وأصر على إنقاذ ابنه من هذا البؤس المحيط به.

قال "كرابيشكو":

- بالإضافة إلى أنني سأعلمه حرفة.

حرفته.

نعم، حرفته.

وما هي؟ أسر الضوء في زجاج؟

أم أسر الظلال في زجاجٍ منصهر كالشمس؟

قال الناس له:

- حرفتك بلا قيمة! قد تكون مفيدة من حيث أتيت، لكنها بلا قيمةٍ هنا. إن انكسر إطار نوافذنا سيأتي صانع النوافذ ويصلحه. لا داعي لصناعة أي زجاجٍ بخلاف زجاج النوافذ.

- ماذا عن الفن؟

لم يحتمل قومه هذا الكلام، فبدأوا يبتعدون عنه فورًا. عاد الجميع ليرتاحوا في بيوتهم. لم يعد هناك ما يفعله "كرابيشكو" سوى حزم أمتعته بسرعة وسماع كلام الناس وهم يبتعدون قائلين "لقد أثرت خسارته على عقله".

لم يبع البيت، بل أغلقه فقط.

لم يكسر النوافذ، بل طلاها بالأسود.

لم يهدم المدخنة، بل سدها بالطوب فقط.

لم يحطم المائدة، بل قلبها.

غادر البلدة بهدوء ممسكًا بيد ابنه.



58



عاد "كرابيشكو" إلى "تشالو" مع ابنه وقال لـ"ماندالينا":

- عزيزتي "ماندالينا"، يحق لكِ الشعور بالحيرة...

وقفت "ماندالينا" ممسكة بيد فتاة صغيرة وسط عائلتها التي غاب عنها "أوتو" بعدما توفي، ونظرت إلى "كرابيشكو" بريبة، بينما يقول:

- ... عزيزتي "ماندالينا"، يحق لكِ التساؤل عن مكاني طوال الأشهر والسنين الماضية، وأيضًا عن الطفل الذي أحمله بحب. قد تظنين أنه شحَّاذ التقطته من الشارع، وقد تظنين أنه ابن أحد أقاربي أخذته لأعلمه الحرفة في الخارج، وربما ظننتِ أنه ابن أحد نبلاء مقدونيا أحضرته لأخطب له ابنة أحد النبلاء من سويسرا أو ألمانيا كي أعطي لشعبنا أهمية في أوروبا. وأخيراً يمكنك التخمين بلا أدنى شكٍ أو ريبة أنه ابني. من الواضح أن كل هذه الاحتمالات متوفرة لك، لكن اسمحي لي بالسؤال كما سمحت لكِ بالتخمين: "من هذه الفتاة الصغيرة التي تحملينها بحب؟".

- عزيزي "كرابيـشكو"، حاولـت الافـتراض حاليًـا أن هـذا الطفـل الـذي أحـضرته إلى عائلتي هو ابن أحد أقربائك وجاء ليتعلم صنعة. كنت سأحترم ذلك كثـيرًا، لكـن هنـاك حدسًا يهاجمني، وإن كان لا يجب عليّ وضع الافتراضـات قبـل أن تؤكـد أو تنفـي هـذا الحدس إن أردت.

- سأفعل، وسأخبرك ما حدث لي من مآسٍ أثناء غيابي ما إن تخبرينـي أولًا مـن هـذه الفتاة؟

قالت "ماندالينا":

- ما زلت على قيد الحياة مع عائلتي كلها وأهل بلدتي "تشالو" في منطقة "يورا". مـا زلت ممتنةً لك لأنك عالجتني بأعجوبة... لكن ينبغي أن تخبرني أولًا...

- لا، أنتِ أولًا...

- لا، أنت أولًا...

رضخ "كرابيشكو" أخيرًا وروى لهـم الأحـداث الـسعيدة والحزينـة وحتـى المأسـاوية التي مر بها خلال أسفاره في آسيا الوسطى.

- آسيا الوسطى؟

- هـذا صـحيح يـا عزيـزتي. لقـد زرت طهـران وبغـداد والقـدس والقـسطنطينية... سبحت في البحر الميت، وقابلت أناسًا يبحرون في الفرات. رويـت لـسكان هـذه المـدن حكاياتٍ رائعة عن وسط أوروبا وجمالها. سرت في الـصحراء لأيـام، ولم أرَ سـوى الرمـال. زرت...

قالت "ماندالينا" بعجب:

- أكمل!

- أفـضل جـزءٍ في رحلتـي وأكثرهـا إفـادة كـان إقـامتي في "بيكـوز" في الإمبراطوريـة العثمانية، حيث تعلمت الكثير من المهارات الجديدة في فن الزجاج.

- هل تعلمت أسرارًا أعظم من التي علمك إياها "أوتو"؟

- لا يوجد عظيم وبسيط في الأسرار، إنما يوجـد أسرار مختلفـة. اختلطـت بالخلفـاء والبشوات والأفنديات والخبراء المشهورين. وصـلت أخبـار مهـارتي إلى أسـماع الـسلطان العظيم. استقبلني شخصيًا بحفاوة، وأطعمني أطيب الأطبـاق التـي لم أذقهـا مـن قبـل. أحببت الحلوى المغطاة بشربات السكر بالأخص، وسهرت أتناولها كل ليلة.

لم تسأله "ماندالينا" عن الطفل، لكنها بدأت تنظر للصغير باستمرار.

- قابلت في "بيكوز" رجلًا يستطيع صنع كرةٍ زجاجية أخف من فقاعة الصابون! إنها خفيفة لدرجة تمكنها من الطفو في الهواء لساعات بمساعدة النفس البشري فقط.

صاحوا جميعًا:

- هذا مذهل! هل تعرف سر صناعة هذا الزجاج؟

- بالطبع! لكن بغض النظر عن معرفتي به لا يمكنني البوح به أبدًا لأنـه سرٌ عظـيم يخص خبيرًا عظيمًا.

- أي نوعٍ من الأسرار هذا؟

- إنه سرٌّ انتقل من الأب إلى الابن فقط دون أي دخيل. بأي حال، لقد دعوت أمهر رجلٍ في "بيكوز" إلى "تشالو" ليلقي عدة محاضراتٍ في اجتماعنا السنوي. سنتكفل بجميع النفقات.

ما زالت "ماندالينا" لم تسأل عن الطفل، لكنها ظلت تنظر إليه.

ولم يسأل "كرابيشكو" عن الطفلة، لكنه ظل ينظر إليها.

- تعلمت كيفية صنع زجاج "عين البلبل"!

سأل الحرفيون:

- تعلمت صناعة "عين البلبل"؟

- هذا صحيح.

- تفضل يا "خراابيشكو"، مرحبًا بك مجددًا معنا! ابق كما تشاء! عش معنا للأبد! فقط أرنا ما عرفته! علمنا!

- لا يمكنني الآن للأسف، فقلبي مليءٌ بالأحزان. عندما يمتلئ قلبك بالأحزان وتزداد الغشاوة في روحك، سيتلوث نفسك، فتصنع زجاجًا هشًا.

- هذا صحيح.

لا تزال "ماندالينا" لم تسأل عن الطفل، واكتفت بالنظر إليه.

ولا يزال "كرابيشكو" لم يسأل عن الطفلة، واكتفى بالنظر إليها.

- ألمي أثقل من جبل "مون بلون" وأثقل من بحيرة "ليمان" وأعلى من برج كاتدرائية "كولونيا". اجتاحني ألمي حتى لم يبق لي في هذا العالم سوى هذا الطفل الذي أمامكم.

بعد ذلك سرد باختصارٍ قصته المؤلمة التي أحزنت الجميع حتى اتسعت أعينهم وانفتحت أفواههم. تأثرت "ماندالينا" وروح "أوتو" و"جيرترود" البدينة والكلاب والقطط التي تجري في الفناء وكل أهالي "تشالو" وضواحيها.



59



قال "جوسا راجوسا" إن على "كرابيشكو" الرحيل.

إنه ذلك الرجل الحذر الذي تقرَّب كثيرًا من "ماندالينا" ودعا ألا يعود "كرابيشكو" أبدًا. لذلك كان أول من نادى برحيل "كرابيشكو".

كان خائفًا من أن يخرج من اللعبة بعد أن تولى أعمال شخصٍ آخر واستولى على ماله وتقرب من زوجته. إنها اللعبة التي يصعب تركها ما إن يبدأها أي أحد. قال:

- يجب أن يرحل "كرابيشكو"! إنه بلا أخلاق. لقد تجرأ على العودة والظهور أمامنا بوقاحةٍ كالوغد، ثم جلب الحرج لـ"ماندالينا" بعدما انتظرته بإخلاصٍ تام.

نظرت "ماندالينا" إلى "جوسا" بارتياب، تريده ألا يتفوَّه بهذا الهراء.

لكـن "جوسـا" واصـل تملقـه لعائلتهـا، هـؤلاء المـسيحيون الطيبـون والمخلـصون والمكـافحون. لم تعتـد هـذه العائلـة عـلى هـذا التـصرف المـشين والمحـرج الـذي فعلـه "كرابيشكو"، وهو يستحق أن يرقد في الجحيم جزاءً له.

إنه الذل.

هكذا وصف "جوسا" عودة "كرابيشكو" لعائلـة "أوتـو". إنـه تـصرفٌ مـذل لا يقـدر عليه سوى هذا البلقاني الأحمق الغبي.

لم يتحمل "كرابيشكو" التعرض للإهانة، فامتدت يده إلى حزام أدوات البستنة، لكنـه تذكر فورًا أنه تخلى عنها منذ وقتٍ طويل. حاول أن يتذكر أين وضعها آخر مرة. ربما في الإسطبل؟ أو عند الفرن؟ أو تحت السرير؟ لو واصل "جوسا" إهاناته فـسوف.. فجـأة لم يعد هناك داعي لمواجهة "جوسا"، فلقد انحنـى وأمـسك معدتـه بـألمٍ حفـر آياتـه عـلى وجهه، بينما يواصل الكلام:

- "ماندالينا" المسكينة! "ماندالينا" الطيبة المتواضـعة. إنهـا لم تـنم مـن القلـق عـلى "كرابيشكو"، وهكذا يكافئها. لقد تزوج بأخرى في الوقت ذاته.. وكنائس العـالم بمـا فيهـا كنيستنا تحرم الـ..

قاطعه "كرابيشكو":

- لا، غير صحيح. لقد سافرت حول العالم وعرفت أن..

- فلتخـرس حـين أتحـدث أنـا، "جوسـا"! يجـب أن يـذهب أمثالـك إلى الجحـيم! "ماندالينا" المسكينة!

حاول أن يعانقها، لكن الألم اشتد عليه وتراجعت "ماندالينا" بالفعل.

- .. أنتِ نقية كندى الصباح! ووفية كأكثر المسيحيين تقوى.

اعترضت "ماندالينا" وهي تتساءل عن سبب تشنجات "جوسا":

- أوقف هذا الهراء فورًا! وأرجوك توقف عن المبالغة في أخلاقي الحميدة..

تساءل "كرابيشكو" أيضًا عن سبب تشنجات "جوسا"، لكنه لم يقل شيئًا.

بدأت "ماندالينا" تعبث بأظافرها، وقالت "جيرترود" إن لديها بعض الأعمال في المطبخ، بينما راقب الجميع كيف سينتهي هذا الشجار.

تمنى "كرابيشكو" أن يدافع عن نفسه، لكنه لم يعرف ماذا يقول، لذلك التزم الصمت.

ظل "جوسا" يتشنج وهو ينادي بعودة "كرابيشكو" من حيث أتى! أن يذهب إلى الجحيم! ويترك "ماندالينا" المسكينة والمخلصة!

كفى هراءً!

ناولوه كأسًا من النبيذ الأحمر ليهدأ وأعطوه كرسيًا ليجلس عليه ثم صمتوا جميعًا.

كانت "ماندالينا" تنظر إلى "كرابيشكو" الذي ينظر إلى الأطفال وهو يتوق للسؤال عن الفتاة، لكن لم يجبه أحد.

شعر "كرابيشكو" بصعوبة الموقف، كما شعر بقلبه يتألم. أراد المغادرة، لكن لا يعرف أين أو كيف. لم يعد واثقًا أين يعيش؟ في الجنوب أم الشمال؟ في الشرق أم الغرب؟

- سأخبرك باختصارٍ ما حدث في غيابك. أولًا، أنجبت لك فتاة جميلة سمَّيتها "بيـترا"، وعشنا معًا بهناء في غيابك. ثانيًا، مات "أوتو" بعد رحيلـك مبـاشرةً وصـعد إلى حديقتـه الزجاجية في النعيم. ثالثًا والأهـم، لقـد عـدلنا إنتاجنـا وعـدنا لـصنع الأغـراض العمليـة المفيدة. كما اكتشفنا طريقة جديدة ساعدتنا على صنع زجاجاتٍ أكثر عـن طريـق نفـخ كمية هواء أكبر من التي تنفخها أنت شخصيًا.

- وماذا فعلتِ أنتِ بفن الزجاج الذي روَّج له "أوتو"؟

- بعد رحيلك بقليل غادر "ميليفيوري" و"فريتز". كافحنا وعانينا للنجاة مـن أزمتنـا المالية. يمكنني القول الآن إنني راضية عن حالي.

- هل تقصدين أنكِ لم تعودي بحاجةٍ إليَّ؟

عملت خلاياها الأنثوية بأقصى طاقتها وبسرعةٍ فكرت بمكرٍ أنـه مـن الأفـضل إبقـاء "كرابيشكو" معها لإنتاج القلائد الزجاجية المميزة. وهكذا ستغزو كلا السوقين.

وقف الجميع يترقب ما ستقوله، وبالأخص "جوسا راجوسا". قالت:

- أنت يا "كرابيشكو".. سيكون مُرحبًا بك هنا دومًا..

قال "جوسا":

- غير معقول! كيف تفعلين هذا بي؟ أنا من يغذي روحك بالإبداعات، وأصر على أن يرحل هذا الضخم بعيدًا مع هذا الطفل القذر الذي أحضره معه.. أمرته "مانداليـنا":

- توقف عن التصرف بحماقة! ألا ترى أنك بالكاد تقف على قدميك؟ من سيعمل برأيك؟ أنت؟

اعترف "جوسا" أنه لا يعرف ما خطبه. لقد زار العديد من الأطباء، لكن لم يتمكن أحدهم من علاجه. مضى عامٌ على هذا المرض اللعين الذي ظل يلتهم جسده.. وروحه.

بعد ذلك انهار على الأرض، ووقعت كرةٌ زجاجية من جيب معطفه. كانت مظلمة مثل الليلة التي أسر فيها "كرابيشكو" مرض "ماندالينا".

وجدها "جوسا" أثناء تفتيشه في أغراض "كرابيشكو".

نظرت "ماندالينا" إلى "كرابيشكو" فبادلها النظر ثم التفتا معًا إلى الكرة الزجاجية. اتضح الأمر لهما. إنه القدر.

أقام "كرابيشكو" و"بريدان" لخمسة أو ستة أو ثمانية أشهر في بيت "ماندالينا" حتى يتعلم الولد اللغة الإيطالية والألمانية والفرنسية. لم يفعل "كرابيشكو" شيئًا خلال هذا الوقت، بل اكتفى بالجلوس جامدًا. ثم أخبرها ذات يومٍ أنهما مغادران فسألته:

- إلى أين؟

- إلى "ميليفيوري".

- حظٌّ سعيدٌ.

60



- صديقي "ميليفيوري"! المجد للقديس "أنطونيوس الكبير" الذي وهبك مهارتك الفذة التي جعلتك مشهورًا. فليبارك الرب الفن الذي جعل قيمتك لا تُقدَّر بثمن.

وهكذا عبَّر "كرابيشكو" عن سعادته بالعثور على "ميليفيوري" أخيرًا بعد أيامٍ من البحث عن عنوان صديقه في أحياء "فينيسيا".

- والآن مقابل ضيافتك، اسمح لي أن أروي لك أكثر قصةً محزنة قد تسمعها في حياتك. وليعاقبني القديس "تريفون" فورًا إن لم تكن كذلك. إنه القديس نفسه الذي اعتدت القسم به منذ سنين طويلة، وقد أدار الآن ظهره لي.

ابتسم "ميليفيوري" بمرحٍ مثل تاجرٍ فينيسي، وفتح ذراعيه مُرحبًا بـ"كرابيشكو". بصراحة.. كان "ميليفيوري" رجلًا طيبًا، على الرغم من أنه أبرح "كرابيشكو" ضربًا في بداية معرفتهما، ربما لم يقصد أن يبدآ تعارفهما هكذا..

قال "ميليفيوري":

- قصتي لا يُستهان بها أيضًا يا صديقي الشجاع ذا الصدر الضخم. انتظر حتى أقصها عليك وستعرف أن قدرك ربما لا يكون أكثر مأساوية من قدري. أيًا يكن، دعني أسمع قصتك أولًا.

بدأ "كرابيشكو" يحكي مطولًا عن أسفاره، وقدَّم له "ميليفيوري" مشروباتٍ دافئة في زجاجاتٍ صغيرة أعناقها طويلة صنعها بنفسه.

من بين كل مغامرات "كرابيشكو"، أعجب "ميليفيوري" برحلاته في اليونان عندما اكتشف "كرابيشكو" صمغًا للصق الزجاج، كما يستطيع لصق الصخور من شدة قوته.

قال "كرابيشكو":

- المثير في الأمر هو أن الصمغ اكتشف نفسه، لكنني كنت محظوظًا بما يكفي لأجده. في الواقع.. الصمغ كائن حي.

- كائن حي؟

- بالضبط.

- هيا، أخبرني عنه أرجوك!

بينما كان يتمشى "كرابيشكو" في غابات أثينا سمع نحيبًا.

كان الظلام حالكًا فارتعد خوفًا. استجمع شجاعته واقترب من الصوت. تبع مصدر الصوت إلى كومةٍ من الصخور. أخذ عينةً معه لكنها ظلت تأن، فلم يعرف ماذا يفعل بها وقرر أن يضع عليها حاويةً زجاجية كي لا تهرب.

في الصباح التالي لم يستطع نزع الحاوية الزجاجية من على سطح المائدة. لقد التصقت بها للأبد. أراد التأكد من افتراضاته فكرر التجربة. عاد إلى الغابة خارج أثينا وأخذ عينةً أخرى. أطلق على هذا الشيء اسم "صمغ".

كان يجعل الأشياء تلتصق ببعضها حيثما تركه. بمجرد أن أدرك أن الصمغ يطعم نفسه بهذه الطريقة، بدأ يلصق المصنوعات الزجاجية به في كل أنحاء أثينا. أعجب ما عرفه عنه هو أن الصمغ يتغذى حتى على الصخر.

عندها طرأت له فكرة.

ذهب إلى "فيدياس".

كان "فيدياس" مستلقيًا وواضعًا يديه على وجهه ومستغرقًا في التفكير.

سأله "كرابيشكو":

- ألا تعمل اليوم يا "فيدياس"؟

التفت "فيدياس" إلى "كرابيشكو" وأخبره أنه لم يعد للعمل بعد، بل يفكر. فقال "كرابيشكو":

- أظنني وجدت حلًا لمشاكلك.

- أنت لا تعرف عن مشاكلي.

- بل أعرفها بالطبع. أصعب مشاكلك هي أن أذرع تماثيلك لا تدوم طويلًا.

قهقه "كرابيشكو" و"ميليفيوري" عند هذا الجزء من القصة، لأن "كرابيشكو" أخبر "فيدياس" أنه يستطيع السفر إلى المستقبل بمساعدة

نفسه. ولقد رأى تماثيل الربات الإغريقيات التي يصنعها "فيدياس" معروضة حول العالم في دورٍ خاصة تسمى "متاحف". وكانت جميعًا بلا أذرع.

صاح "فيدياس" بألم:

- لكن هذا فظيع! قلبي يتألم!

واصل "كرابيشكو":

- كانت ورشة "فيدياس" مزدحمةً بتماثيلٍ محطمة الأذرع. بعضها لنساءٍ يحاولن استخدام جمالهن لإخفاء ألمهن. وبعضها لرجالٍ رياضيين وشباب يخفون ألمهم في قلوبهم خلف نظراتهم الحادة. وبعضها تماثيل رضع. التماثيل الباقية كانت صغيرة، لذلك احتفظت بأذرعها.

وضح "فيدياس" قائلًا:

- من الصعب إيجاد حجرٍ لا ينكسر هذه الأيام. أحيانًا أظن أن الحجر كائن حي ويعصاني.

قال "كرابيشكو":

- إنه حي! الحجر حي! وكذلك الزجاج.

جذبته نبرة الاقتناع في صوت "كرابيشكو" وقال:

- ما دليلك على هذا!

- لا أمتلكه الان للأسف. يمكنني فقط أن أريك وأنقذك من متاعبك.

رد "فيدياس" العظيم:

- حتى "هيفيستوس" إله النار ورب الحرفيين لا يمكنه إنقاذي من مصاعبي، فكيـف تأمل أن تفعل أنت أيها الفاني؟

قال "كرابيشكو":

- لكن إن ساعدتك، هل...

قاطعه "فيدياس" بغضب:

- أعرف طلبك، لكن اعلم أنني لن أعطيك "هيلين" أبدًا.

- لا يمكنك الاعتناء بها.

- وتظن أنك تستطيع؟

- تظن أنني لستُ جديرًا بها بسبب خبراتي، ولأنكم يا سكان أثينا تنادوني بـ"البربري الأحمق". لكني أؤكد لك أن هذا غير صحيح.

- "هيلين" شابة جدًا بالنسبة لك. بالإضافة إلى ذلك، ماذا يمكنك أن تعطيها؟

- لا أريد إزعاجك بالتفاصيل، لكنني سأسألك مجددًا إن كنت مستعدًا لمساعدتي إن ساعدتك؟

أجاب "فيدياس":

- تعلم أن الحب ليس كل شيء.

- نعم، لكن يمكن الحث عليه. الحب أعمى في بدايته، ولا يُرى إلا عندما ينضج.

شبك "فيدياس" ذراعيه خلف ظهره وتمشى بين تماثيله المصنوعة من الصلصال والحجارة، بينما يلمس وجوهها بين الحين والآخر. قال:

- الحب ألمٌ يجب تسكينه أو تخفيفه. أعلم هذا، فلقد جربته ألف مرة. الحب ألم يجب تخفيفه.

- إن كنت تعرف ألمي، فلمَ لا تحترمه؟

- أنت متزوجٌ يا "كرابيشكو".

- ماذا في ذلك؟

- لديك ستة أطفال.

- ماذا في ذلك؟

- كيف تتخيل الأمر؟ أين ستعيش "هيلين" دون إثارة غيرة أحد؟

- الفن أعمى مع هذه المسائل التافهة.

اضطر "فيدياس" لمغادرة الورشة، وخرج.

واصل "كرابيشكو" سرد قصته:

- كانت ذراعا "تيربيسكوري" ربة الغناء والرقص على رفٍ خشبي على الجدار الغربي. أما أصابعها فمفرودة ومتباعدة، ويمكن رؤية عروقها. كان ذراعاها ملفوفتين بقطعٍ من القماش والحرير. لو كانت هناك أي نسمة هواءٍ في هذا الصيف لرفرف الحرير من خفته.

التقط "كرابيشكو" ذراع "تيربيسكوري" اليسرى ووضعها في مكانها عند جسدها. ثم أخرج الصمغ من حقيبةٍ قماشية ووضعه على المكان الذي انفصلت منه الذراع. بدأ الصمغ مفعوله فورًا، وأخذ يأكل بسرعةٍ من حيث انفصل الذراع والجسد. وسرعان ما التصقا معًا مجددًا.

عاد "فيدياس" عند الغروب ولم يصدق عينيه اللتين اتسعتا عن آخرهما. أخذ يتحسس التمثال بحثًا عن الشق، لكنه لم يجدها.

التفت "فيدياس" إلى "كرابيشكو" وقال:

- أنت كالآلهة.

- أنت محق، أنا كذلك. لهذا إن أردتني أن ألصق الذراع الأخرى، عدني بأن تعطيني "هيلين". لن ألصق ذراع "تيربيسكوري" الأخرى إلا بعدما أحصل عليها بين ذراعي.

- ابنتي "هيلين" تليق بإله.

61



استمتع "ميليفيوري" و"بريدان"، بينما يـستمعان إلى "كرابيـشكو"، والآن نظـرا إليـه بدهشةٍ وقال "ميليفيوري":

- لكنك تقص حكايةً من أثينا القديمة!

- وماذا في ذلك؟ الفن يتعدى حدود الزمان والمكان.

ضحك "ميليفيوري" باستمتاعٍ وقال:

- أتساءل.. إن كان هذا الصمغ يتغذى على الصخر، إذًا سيلتهم تمثال "تيربيسكوري" كله ولن يبقى منه شيء. سيختفي ولن يبق سوى الصمغ.

- تمامًا يا "ميليفيوري". لماذا إذًا اختفى عدد كبير من التماثيل القديمة؟

صمت "ميليفيوري" ولم يضف شيئًا.

واصل "كرابيشكو":

- والآن، استمع إلى رحلتي في الأراضي العربية. هناك أفندي عظيم له ابنة باهرة الحسن والجمال. أمر بسجنها في قلعةٍ خاصة لحماية جمالها الخالص من أعين البشر. محكومٌ عليها بالبقاء حتى يجد لها الوزير العظيم زوجًا مناسبًا. لهذا استدعى أبرع المهندسين وأمهر الحرفيين من الإمبراطورية الشرقية كلها من سوريا حتى بغداد. ذهبت إلى هناك ضمن فريقٍ، حيث كنت المستشار المختص بالزجاج. أذهلت مهارتي الكثير من الناس دون أن أدرك، لذلك توليت أنا مهمة البناء. بنيت القلعة بأكملها من الزجاج. وبما أن القلعة زجاجية، كان سهلًا رؤية العروس المستقبلية الجميلة تتمشى بين الغرف. لكن للأسف الشديد اكتشف والدها أنني تعديت على أمانيه. تسلل ذات مساء إلى القلعة ورأى العاشقين يشبعان رغبتيهما في أحضان بعضهما. بالطبع رآنا لأن القلعة زجاجية، صحيح؟ وكيف تعامل هذا الوزير مع الأمر؟ قرر هدم القلعة فورًا ونحن بداخلها. لسوء الحظ لم نكتشف المصير الذي ينتظرنا في الوقت المناسب و..

- وماذا؟

- تحولنا إلى ثعبانين زجاجيين في الصحراء..

- ..؟

رأى "كرابيشكو" نظرة الإحباط في وجه "بريدان" فأضاف بسرعة:

- واسم هذه الأميرة كان "جولابيا"!

سأله "ميليفيوري"، بينما ما زال متعجبًا من القصة الأخيرة:

- هل تعلمت شيئًا جديدًا هناك؟ تقنية جديدة أو ما شابه؟

- تعلمت صناعة زجاج "عين البلبل"؟

- "عين البلبل"؟

- هذا صحيح.

تحمس "ميليفيوري" كثيراً لدرجة أنه ظل يقفز وحطم صفًا كاملًا من الحاويات الزجاجية التي سقطت على الأرض ففزع ابن "كرابيشكو". لكنه لحسن الحظ تعلم بعض الإيطالية وفهم أن هذا مجرد حماسٍ فني خالص. بالإضافة إلى أنه كان مسحورًا تمامًا بقصص أبيه.

قال "ميليفيوري":

- هل تصنع لي البعض من هذا الزجاج؟

رد "كرابيشكو":

- ربما. لكن حظي التعس يمنعني من النفخ في الزجاج حاليًا. روحي مكدرة ونفسي مضطرب. أفكاري كئيبة وقلبي يرتجف! وطالما الحال هكذا لن أستطيع صنع شيء.

بعد ذلك أخبر "ميليفيوري" عن المأساة الصعبة التي ألمت به. ليس فقط موت "جولابيا"، بل أيضًا مشكلة "ماندالينا" التي لم تعد مهتمة بفن الزجاج، بل بالربح فقط.

قال "ميليفيوري":

- لقد أتيت إلى المكان الصحيح يا عزيزي "كرابيشكو"! فالزجاج فن في هذا البلد. ضاحية "مورانو" هي موطن الزجاج. هناك الكثير من العمل لك هنا، ويستطيع ابنك تعلم الصنعة.

قدم لهما "ميليفيوري" المزيد من المشروبات الدافئة في زجاجاتٍ جديدة. ثم حكى عن تجاربه الخاصة. تدهورت الأمور سريعًا بعد موت "أوتو"، وحتى "ماندالينا" عجزت عن التصرف، وزادت الأوضاع سوءًا مع الوجود الدائم لـ"جوسا" اللعين. لهذا حزم "ميليفيوري" أمتعته وعاد من حيث جاء.

وعده "ميليفيوري":

- ستكون بخير هنا! سأعينك بائعًا متجولًا!

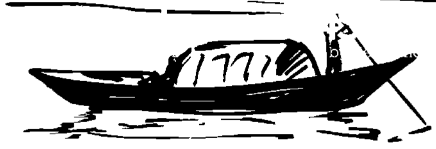
- وماذا سأفعل؟

- ستبيع منتجاتنا في الأنحاء.

رد "كرابيشكو":

- موافق، فرئتاي قد وهنتا، ونظري الذي كان ثاقبًا أصبح يضعف تدريجيًا.

62



أمضى "كرابيشكو" الأيام التالية بائعًا متجولًا. وليسلي وحدته أخذ يحكي تجاربه الحياتية لابنه أثناء السير. تساءل "بريدان" كيف تمكّن والده من السفر حول العالم بينما كان معه طوال الوقت.

هذه بعض حكاياته:

- إن زرت مدينة "كالكوتا" الهندية يومًا، غادرها من الشرق وسافر بضعة كيلومترات حتى تجد غابة. ستجد معبدًا مخفيًا بين الأشجار الطويلة، ويسكن فيه عشرات الرهبان. ستطلب منهم المبيت. تجبرهم ديانتهم على معاملتك باحترامٍ بالغ. سيخبرونك قصصًا عن حياتهم كنساكٍ وستندهش جدًا، وستشعر بامتنانٍ شديد لضيافتهم. لا يغمض لك جفن وقت النوم، بل انتظر حتى ينام الجميع. احذر من أن يلمحك أحدهم، فهم يستيقظون باكرًا قبل الفجر. لا تنم وتأكد من أن الجميع في سباتٍ عميق ولا يوجد سوى أرواح أسلافهم الهائمة بين أشجار النخيل

المتمايلة مع الرياح، وعندها انهض بهدوء. اذهب إلى الغرفة المقدسة التي لم ترهـا مـن قبل لأنها محظورة على الغرباء. وبالتالي لن يسمحوا لك بدخولها. ستجدها بسهولة لأن ممرات المعبد تؤدي إليها. ادخلها سرًا وسترى تمثـالًا ضـخمًا للإلـه الهنـدي "كريـشنا" في المنتصف.. عذرًا، أعني تمثـال "بـوذا" ذا الـبطن الكبـيرة وفي وسـطها سُرة. هـذا التمثـال مشهور بعينيه المصنوعتين من أفضل الزجاج المطعـم بأحجـار الأوبـال والزمـرد الأزرق. أمعن النظر في هاتين العينين وتذكرهما جيدًا، لأنهما لي!

اندفع ابنه يسأله:

- مذهل! أخبرني كيف حدث هذا!

- كيف حدث؟ ببساطة. لا يداوم الرهبان على حراسة التمثال جيدًا، فهم منغمسون في الأنشطة اليومية الخاصة بالمعبد. استغل بعض اللصوص الفرصة وسرقوا عيني "بوذا" اللتين تملكان قوى علاجيـة خاصـة. وهكـذا وجـدت نفـسي في "كالكوتـا" بـصفتي بائعًـا ومندوبًا عن حرفيي الزجاج في وسط أوروبا. في ذلك الوقت لم يكـن الهنـود عـلى وفـاقٍ مع السلطة البريطانية التي استغلتهم وغزتهم. كانت هناك امرأة تصرفت بطريقتهـا ردًا على هذا، لكنني لا أذكر اسمها. بأي حال، اعتقد الهنود أن اللصوص سرقوا عينيِّ "بوذا" من باب الانتقام أو لأي سببٍ آخر، ربما ليسلموهما إلى أحد المتـاحف؟ وهكـذا غـضب الهنود من الإنجليز بشدة، ويمكن القول إن العلاقات بين الشعبين اضطربت أكـثر. صـادف وجـودي هنـاك فتطوعـت لأصـنع لهـم عينـين جديـدتين كي يهـدأ غـضبهم. أخـبروني أنـه

ما من أحد يمكنه صنع عينين بقوى علاجية. فقلت إنه يمكنني صنع زجاجٍ شافٍ بنفسي الذي يسحب طاقة الكون!

قبل الهنود عرضي بشرط أن يشترك معي رجلٌ اسمه "فاسانكاري بابا". إنه فنان وبطل هندي من الأنحاء المجاورة. قبلت دون ندم لأني سأتعلم منه الكثير من الأمور.

بدأنا العمل في اليوم التالي.

أشعلنا نارًا تحت بعض النخيل.

- وضعنا فيها صخورًا من المعابد القديمة فتأججت النار حتى أصبحت مرئية من وسط المدينة. بعد ذلك جهزنا مزيجًا من الصودا والسليكون، وهو مزيجٌ أحمله معي بصفتي مندوب مبيعات.

أهم شيءٍ كان النفخ. حاولت التركيز بسحب عدة أنفاسٍ عميقة كما علمني "أوتو" و"شاكر" ومعلم هندي تعرفت عليه في أحد الأيام. صنعت عينًا من زجاج الأوبالين النقي الذي اندهش "فاسانكاري" من جماله. لم يسحب نفسًا عميقًا حين جاء دوره. لكنه طلب ثلاثة أيامٍ وليالٍ أو ربما يومين وليلتين أو اثني عشر، لا أتذكر الآن. أراد أن يجلس متعبدًا على صخرةٍ على الطريق. بعد ذلك عاد وأخذ يرتل تسعة من شعائر الهندوسية التي تنتهي كما يلي:

"سيدي، حامي كل المخلوقات. إن وجهك الحقيقي مخفي وراء هالةٍ متوهجة. أرجوك أزل هذا الحجاب وأظهر نفسك أمام عبدك المخلص".

كانت هذه اللحظة الحاسمة التي سينفخ فيها "فاسانكاري" في الزجاج ليصنع عين "بوذا" الأخرى بصفاتٍ مقدسة.

أعترف أن العينين بدتا متشابهتين عن بعد. لكنك ستلاحظ الفرق عن قـرب. فعينـي تتميز بطاقةٍ دنيوية خالصة بينما تتميز عين "فاسانكاري" بصفاتٍ مقدسة. عندما تنظـر العينان معًا إلى أي إنسان سيشعر بتيارٍ عجيب يسري في جسده. أخبرني الناس هناك أن الكثير من الزوار الذين يعانون من أمراضٍ في العـين بـالأخص تـم علاجهـم بعـدما بـاتوا ليلتهم في المعبد.

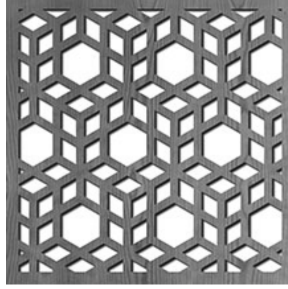
سأل الصبي وهو ينظر إلى عينيِّ "كرابيشكو" الغائمة:

- لماذا لم تُشفى أنت أيضًا يا أبي؟

ارتبك "كرابيشكو" للحظة وتردد قليلًا وهو يعقد حاجبيه، ثـم قـال إنـه كـان مجـبرًا على العودة فورًا إلى "فينيسيا". لو انتظر قليلًا لشُفي حتمًا. مـن الممكـن أن يـذهب إلى هناك مجددًا إن رغب الصبي بالطبع. يمكنهما الذهاب معًا وعندها سيُشفى بالتأكيد.



63



- وإن سافرت إلى مصر فاذهب للمتحف المصري. سترى مجموعةً رائعة من المصنوعات الزجاجية من سوريا. مصابيح ودوارق بزخارف مدهشة. أحضروها من الفسطاط وسامرَّاء وأنطاكية وحلب ودمشق. لا تندهش حين تعرف بوجود قماشٍ يسمى بالقماش الدمشقي. إنه استعمالٌ حديث للاسم، لكن في الماضي كان ينسب لدمشق أجمل أنواع الزجاج ويسمى الزجاج الدمشقي أو زجاج دمشق. كان جميلًا لدرجة تبهر الأسبان أنفسهم. ولكن تحريًا للدقة سأطلق عليه الزجاج السوري.

أكمل:

كان يمكن أن أبدأ الحكاية بـ"إن زرت سوريا"، لكن عليِّ التحدث عن القاهرة أيضًا بسبب المتحف المصري حيث يوجد العديد من القطع التي رأيتها في أحلامي! ستتساءل بالطبع كيف يمكن لأي شخص أن يحلم بشيءٍ لم يره. سأقول إن الأمر يشبه السؤال عن قدرة الأحلام في التنبؤ بحدثٍ لم يحدث بعد. حتى الآن حين

أتذكر هذه القطع الزجاجية لا يتضح لي كل التفاصيل كما هو الحال مع هذه المواقف. لا يتضح لي إذا ما كنت قد حلمت بـصنعها أو أنني قـد صـنعتها بالفعـل. لكـن انتظـر واسمع ما لديّ أولًا قبل القفز إلى أحكامٍ واستنتاجات.

- أهي مغامرة ممتعة أخرى؟

- بالطبع.. بالتأكيد!

- راودتني رؤية ذات مـرةٍ عنـدما كنـت في ورشـة "أوتـو" أصـنع تماثيـل الحيوانـات الصغيرة ودبابيس الزينة والزجاج المطعم بالجواهر. تراودني الرؤى دومًا أثنـاء انغـماسي الشديد في عملي، أخبرك الآن حتى تعرف من الذي تتعامل معـه. قـال "أوتـو" إن هـذه الرؤى منح من الـرب. وهكـذا راودتنـي رؤيـة بيـنما كنـت في حالـة الـوعي واللاوعـي. سقطت بشدة وآذيت عينيّ. رأيت الكثير من الأشياء التي رأيتهـا مـن قبـل في المتحـف المصري. رأيت ثلاثة مصابيح مصنوعة بثلاث تقنيات وثلاثة أساليب إنتـاج بثلاثـة ألـوان مختلفة بالطبع. مصباح مصنوع بالنفخ في قالب، وآخر مصنوع بالأسلوب الأسطواني، أمَّا الثالث فلا أعرف الإجابة حتى لو سألني الرب. الأغرب هو أنني كنت تـاجر جـواهرجي سوري دخلت محلًا ورأيت الثلاثة مصابيح. أُعجبت بالثلاثة مـصابيح فـورًا لأنهـا هـدايا مناسبة لزوجاتي الثلاثة. ثلاثة مصابيح لثلاث زوجـات. نعـم، لا تنـدهش. كنـت متزوجًـا وقتها من ثلاث نساء، أحببتهن واحترمتهن سواسية، وتمنيت أن يبادلنني الـشعور ذاتـه. بأي حال، احتوت المصابيح الزجاجية على بعض السحر. كانت محاطـة بأسـلاكٍ ذهبيـة، وتفـوح بـروائح عتيقـة روائـح أعـشاب وتوابـل شرقيـة. المـصباح الأول يتـوهج بلهيـبٍ

أصفر، والثاني بلهيبٍ أحمـر، والثالـث بلهيـبٍ أزرق. تمامًـا مثـل ألـوان زوجـاتي الثلاثـة. أتعلم، طوال ذلك الوقت لم أحب النظام في حياتي.

- أنت تبالغ يا أبي.

- على الإطلاق. استمع لما جرى لي بعد ذلك!

- عقدت صفقة مع صاحب المحل، وقدمت المصابيح لزوجاتي. وعندما كنت أبحـث عن غرفة أي منهن أثناء وجودي بالخارج، كنت أستطيع تمييز غرفة كـل واحـدة مـنهن على حسب لونها. فغرفة زوجتي المغربية تشع بالأحمر الباهت، وغرفة زوجتي الصينية تتوهج باللون الأصفر، أمَّا غرفة زوجتي الروسية تتـألق بـاللون الأزرق الزاهـي. وهكـذا أعرف موقع كل زوجاتي.

توقف "كرابيشكو" عند هذه النقطة عندما لاحظ أن ابنه لم يعد يـستمع إليـه، بـل أمال رأسه جانبًا على كتفه. لم ينم لكنه كان حزينًا.

أدرك "كرابيشكو" خطأه فأضاف سريعًا:

- كان اسم زوجاتي الثلاث "جولابيا"...

لكن بلا فائدة.

- خلال إحدى أسفاري إلى القاهرة، رأيت الثلاثة مصابيح ذاتهـا. سـتراها إن سـافرت إلى هناك وحدك أو معي. وعندها ستفخر بوالدك. دعني أخبرك عن "تيفاني" الذي جـاء لرؤيتي. سأروي لك ما حدث.

لكن "بريدان" تعب من الاستماع ونام.

64



- لم يعد لديّ سوى نفسٍ واحد يا عزيزي "ميليفيوري".

نفس واحد فقط. لقد تعبت. لم أعد مهتمًا بالصنعة أو الزجاج. لستُ واثقًا إن كنت ستفهمني أم لا. أصبحت يداي مضطربتان، وتقلصت رئتاي، وتقدم بي العمر، وضعف بصري إلى ما يقارب العمى. لا يمكنني أبدًا التعبير لك عن امتناني لأنك اعتنين بـ"بريدان" طوال هذه السنوات وعلمته الصنعة التي تعتبر مجهولة وبلا قيمة في بلادنا.. ومع ذلك من يدري ما يخفيه المستقبل. ولأثبت لك امتناني وحبي، سأستخدم نفسي الأخير لأصنع لك "عين البلبل" هنا. وليكن ما يكون.

التمعت الدموع في عين سنيور "ميليفويري" بسبب كلمات "كرابيشكو" الرقيقة. في الواقع.. لم يكن مهتمًا بتعلم أسلوب صناعة "عين البلبل" بقدر اهتمامه أن يعطي "كرابيشكو" فرصة أخيرة ليعيد إليه شعور الأيام الخوالي. شعور الجدارة والرضا الذي كمّل حياته.

- لنفعلها معًا!

- نعم!

ذهبا إلى إحدى ورش "ميليفيوري"، وبدآ العمل.

قال "ميليفيوري":

- ألقِ الأوامر!

فرد "كرابيشكو":

- فلترفع الحرارة 1,723 درجة.

- تم.

- أضف الصوديوم والسليكون بنسبة 72%.

- فعلت!

- أضف بعض الألومونيوم وملح النحاس.

- تم!

أغلق "كرابيشكو" عينيه تمامًا، ثم رفع رأسه نحو السماء التي لم يتمكن من رؤيتها. انقبضت عروق رقبته وضم قبضتيه بينما يكمل:

- يجب إضافة خمسة بالمائة من الكوبالت!

- أضفتها!

- والآن...

- الآن...؟ بعض الكهرمان... إنه كالروح، ناعم وخيالي وهش في الوقت ذاته...

- خيالي وهش...

- والآن... بعض الدموع من عذراء...

- أنت تفقد تركيزك يا "كرابيشكو". أنت تفقد تركيزك.

- حسنًا، حسنًا. انس الدموع.

عندما أكملا المزيج، وضعه "ميليفيوري" في الفرن، وانتظرا حتى أخبره "كرابيشكو" أن الوقت قد حان.

- حان الوقت!

صعد "كرابيشكو" بمساعدة "ميليفيوري" على برميلٍ خشبي، ثم أمسك الماسورة الحديدية بيديه ووضعها في الفرن حيث يوجد المزيج المنصهر وهو يغلي. بعد ذلك سحبه وتنفس ثلاث مرات. إنه النفس الأخير الذي احتفظ به الكون من أجله. ثم نفخ.

65



بعد ذلك حل ظلامٌ تام.

ظلمة معتمة.

صمت رهيب.

كان يتنفس. يمكنه سماع نفسه، لكنه يستطيع سماع أصواتٍ صاخبة بعيدة.

لم يسمع شيئًا آخر.

حاول استراق السمع.

استدار فلم ير شيئًا، ماعدا شقًا براقًا أمامه.

أهو ضوء النهار؟

إنه شقٌ بعرض حد السكين.

وضع عينه على الشق.

النهار مشرقٌ بالخارج.

وهو كان يتنفس.

وهناك رأى...

الكثير من العمال يرتدون قمصانًا بيضاء وستراتٍ سوداء قصيرة. كانوا يـدحرجون براميلٍ خشبية من عربةٍ صغيرة إلى أبواب أحد المنازل. بـالقرب مـنهم هنـاك صـبي بعمر العاشرة، يرتدي بنطالًا قصيرًا ويقف عاري الصدر. كان يقـف عـلى تـلٍ صـغير ويراقبهم بمرحٍ بينما يتقافز ويركل الغبار بقدميه العاريتين بين حينٍ وآخر. ظل يقفز وينادي بفرحٍ على العمال الذين تجاهلوه وركَّزوا على عملهم كي لا تـسقط البراميـل من العربة. وقف اثنان في العربـة ليـدحرجوا البراميـل عـلى لـوحين خـشبيين، بيـنما انتظر اثنـان عـلى الأرض ليجمعـا البراميـل. وهنـاك عـاملان يـدحرجان البراميـل إلى مدخل بيتٍ بفناءٍ واسع، بينما يقف رجـلٌ ملتحـي ملـتحٍ يـأمرهم بـالإسراع قبـل أن ينفد منهم الوقت.

صاح الرجل الملتحي:

- لا وقت! ما من وقت!

فقاطعه الطفل ورد بسعادة فوق التل:

- بل يوجد وقت! هناك وقت!

صرخ الرجل الملتحي:

- هلا يُسكت أحدكم هذا الولد؟

ضحك العمال ولم يحركوا ساكنًا لتنفيذ أوامره. واستمرت مناوشات الرجل والطفل:

- أسرع! أسرع!

- أبطئ! أبطئ!

- تعاملوا بحذرٍ مع البراميل!

- لا تتعاملوا بحذرٍ مع البراميل!

صرخ الرجل:

- هذا لا يُحتمل!

ثم جرى نحو الصبي الذي شعر بالخطر فهرب واختفى خلف التل. فعاد الرجل إلى العمَّال سريعًا. رجع الصبي مجددًا واستلقى على الأرض ليشاهد العمَّال ثانيةً وليواصل الضحك.

بعد الانتهاء من إنزال البراميل، دخل الرجل الملتحي البيت وجلس العمال بإرهاقٍ حول العربة. أخرج اثنان منديلهما ومسحا جبينهما وعنقيهما.

اشتدت حرارة الصيف في الظهيرة. كانت التربة جافة، ولا يوجد على الطرق المؤدية للمدينة سوى الغبار. عندما تنقلب عربة تثير عاصفة غبارٍ عظيمة وسط حرارة الظهيرة، فيبدو للناظر وكأنها مسيرةٌ عسكرية من جيشٍ كامل.

صاح أحد العمال وهو يجلس على العربة ويدلدل ساقيه:

- أيها الصبي! تعالَ إلى هنا!

أشار إلى الولد الصغير المختبئ خلف شجرة صغيرة، فنهض الولد بسعادة وأسرع إلى العمال الذين يضحكون من جريه المضحك. وصل إليهم الصبي وأخذ يمسح عرقهم بأكمامه القذرة.

عرض عليه أحدهم:

- يا ولد.. هل تريد بعض النبيذ؟

- نعم.

- لماذا لم تصح قائلًا "لا أريد" هذه المرة؟ ألا تحب معارضتنا؟

قال آخر يجلس على العربة:

- أنت تريده لكنك لن تحصل عليه. نحن أيضًا نريد، لكننا لم نحصل على النبيذ بعد. ربما إن تجولت قليلًا ثم عدت...

فجأة قفز الصبي إلى الأرض وتدحرج تحت العربة بهلعٍ رهيب، ثم غطى رأسه بيديه الممسكتين بقبعته طوال هذا الوقت وقد نوى أن يمسح بها العرق عن جبين العمال. التفت العمال إلى البيت ورأوا الرجل الملتحي يخرج من الباب حاملًا زجاجات النبيذ فصاحوا بينما يأخذون الزجاجات الباردة منه:

- أحسنت يا سيدي!

قال الرجل الملتحي:

- انتهى العمل اليوم. سأتصل بكم عندما تأتيني حمولةٌ أخرى.

بعد ذلك أخرج نقودًا من جيبه واقتسمها معهم. أحدهم له بطنًا كبـيرة، أخـذ منـه الليرات وحك بها ذقنه ثم وضعها في جيبه. ودَّعهم الرجل الملتحي ثم عاد إلى بيته.

صاح الرجل الجالس على العربة:

- اخرج أيها الصبي!

زحف الصبي خارجًا فورًا ومد يديه إلى الرجل. أراد أن يتناول النبيذ، فقال الرجل:

- أخبرنا.. ما أخبار "أنكا"؟

- لن أخبرك إلا إذا أعطيتني رشفة.

قال الرجل البدين:

- لن أعطيك شيئًا إلا إذا أخبرتني.

لكز الآخرون بعضهم بمرافقهم.

- لن أخبرك إلا إذا..

- وأنا لن أعطيك إلا إذا..

رفع الثلاثة الآخرون زجاجاتهم وشربوا أمام الصبي الذي سال لعابه.

- هل ستخبرنا؟

- نعم.

ناوله أحدهم الزجاجة ليأخذ رشفة، فرفعها الصبي وشرب بشراهة.

- مهلًا.. انتظر قليلًا.. ليس بهذه السرعة!

انفجروا بالضحك وناولوا الصبي زجاجاتهم بالدور حتى يأخذ بضع رشفات. كان هذا كافيًا تمامًا ليسكر الصبي، فبدأ يقوم بحركاتٍ بهلوانية، بينما يطرق العمال على الأجزاء الخشبية في العربة ويغنون أغنيه "العالم يحترق". أصدروا جلبةً صاخبة وصلت للبيوت المجاورة.

فجأة خرجت فتاة بثوبٍ أصفر من أحد المنازل، وجرت إلى العمّال. قفزوا إلى العربة فورًا عندما رأوها. أمسك الرجل البدين اللجام وانطلق بمشقةٍ على الطريق المغبر. أمّا الثلاثة الآخرون فنادوا على الفتاة من مؤخرة العربة، بينما يرسلون إليها قبلاتٍ في الهواء.

وصلت الفتاة إلى الصبي الذي كان يتدحرج ويضحك على الأرض المغبرة.

- كم مرة أخبرتك ألا تشرب النبيذ؟ كم مرة؟ انظر إلى نفسك!

ثم جلست بجانبه وعانقته. هدأ الطفل ودفن وجهه في صدرها، ثم كتم أنفاسه وأرهف سمعه ثم قال:

- "أنكا"، هل لديكِ قلبان؟

- لماذا؟

- لأني أسمع خفقاتٍ مزدوجة بداخلك..

قالت "أنكا" وهي تساعده على النهوض:

- هيا! انهض ودعنا نذهب!

انفتح باب المنزل مجددًا وظهر الرجل الملتحي. صمت قليلًا عندما رأى الصبي والفتاة. نظر إلى الصبي الذي يتشبث بثوب الفتاة ثم اقترب منهما. قال للفتاة التي اتسعت عيناها، بينما تنظر إليه:

- هذا الولد مشاغبٌ مزعجٌ. يجب أن تعتني به أفضل من ذلك.

فترة صمت. ثم ضحكت الفتاة وهي تلتفت حولها وتقول بخفوت حتى لا يسمع الجيران:

- وأنت يجب ألا تكون بهذه القسوة. تدَّعي أنك رجلٌ نبيلٌ، لكن انظر إلى أفعالك.

صمت الرجل الملتحي ثانيةً. كان في طريقه إلى بيته بالفعل، لكنه استدار إلى الفتاة. أراد أن يسبها أو يصرخ بها أو أي شيء. ثم فجأة وفي لحظةٍ بدت أبدية، رأى ذراعي الفتاة ويديها اللتين تلتفان بلطفٍ حول عنق الصبي. بدا معصماها مألوفين، وكأنه رآهما من قبل في مكانٍ ما. حاول التذكر بلا فائدة. أكملت الفتاة:

- إنه مجرد طفل.

قال الرجل الملتحي وكأنه استفاق من غفوته:

- عذرًا.

- إنه مجرد طفل ويجب ألا تقسو عليه.

في هذا الوقت كان الصبي يحاول ركل الرجل بقدمه، لكن الرجل تراجع. بدا مشهد المحادثة من بعيد كأنها رقصةٌ وسط الرياح.

بعد ذلك قال الصبي:

- "أنكا"؟

- نعم؟

- هل تتنفس الأشجار؟

- حسنًا.. إنها تفعل على الأرجح، وإلا كيف تنمو؟!

- ما أعنيه هو هل تتنفس بصوتٍ مثلنا؟

- لا.

- نعم.

ردت "أنكا" وهي تمسح دموعها بمريلتها وتزفر وتئن:

- قلت إنها لا تفعل، فهي لا تملك أفواهًا مثلنا.

بدأ الصبي ينعس ببطء، فأغلق عينيه بهدوء. تبدد العالم من حوله من اللون الأصفر إلى النحاسي إلى البني، وأخيرًا إلى الأسود.

تمتم وهو يغفو:

- بل تتنفس.. تتنفس.. تتنفس..

ثم غرق في سباتٍ عميق.

راقب "كرابيشكو" المشهد بكامله، وشعر بعينيه تدمعان. لمس خديه في الظلام. كانا مبتلين. لم يعرف أين هو أو كيف انتهى به المطاف إلى هنا. أغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما وحاول أن ينظر مجددًا من خلال الشق. لم يرَ شيئًا. كان الظلام حالكًا في الخارج أيضًا. حاول أن يتذكر الصبي ببنطاله

الأبيض المتسخ وقميصه الذي يرفرف مع الرياح، بينما يجري وسط حقول العنب وبين أقدام جامعي العنب. حاول أن يتخيل نفسه نائمًا بعمق بين أحضان "أنكا" مثل الـ...

كان محاطًا بجدارٍ أملس ومتعفن وصلب، إنه ما يفصل بين الظلام الخارجي وظلمته الداخلية. فجأة سمع طرقًا:

"تك.. تك.. تك".

كتم "كرابيشكو" أنفاسه، والظلام يحيط به من الخارج والداخل.

ما زال يسمع الطرق:

"تك.. تك.. تك".

لسببٍ ما استجاب "كرابيشكو" وطرق:

"تك.. تك.. تك".

رد الطرق عليه.

همس صوتٌ خافت من الخارج:

- أعلم أن الأشجار تتنفس. أعلم ذلك!

تعرَّف "كرابيشكو" صوت الصبي. اضطرب قلبه وتقطعت أنفاسه. قال الصبي:

- من بالداخل؟

استجمع "كرابيشكو" قوته ورد بخفوت:

- أنا الشجرة السحرية التي تتكلم وتصنع الأعمال الصالحة.

سأل الصبي:

- ما اسمك؟

- بلوط، وأنت؟

- "كرابيشكو".

الصبي كان أيضًا "كرابيشكو"!

لهث "كرابيشكو" ليلتقط أنفاسه، لقد كان يختنق. شعر بأنه سيندثر. ثم قال البلوط "كرابيشكو" للصبي "كرابيشكو":

- اسمع يا "كرابيشكو"، ما تفعله ليس جيدًا. يجب أن تطيع والدتك.

- لكنني أحب شرب النبيذ.

- النبيذ يشوِّش تفكيرك.

- لكنني أحب اللعب في الحديقة وفي حقول العنب.. وأنت؟ كيف تعرف بشأني؟

- ألست شجرة سحرية؟!

- نعم.

قال "كرابيشكو" وهو يكبح دموعه بصعوبة:

- اسمع يا "كرابيشكو"، أنا أستطيع التنبؤ بالمستقبل.

- حقًا؟

- حقًا.

- و؟

- أظنك ستصبح مشهورًا جدًا. ستمر بالكثير من الفرح والسعادة.. لكن..

- لكن..؟

- لكن حين تكبر سيأتي رجلٌ غريب ويأخذك معه. سيعرض عليك الشهرة والثروة. سيعرض المال. سيعرض عليك الخلاص.

- هذا رائع!

همس "كرابيشكو" بغيظ:

- لا تذهب!

- لماذا..؟

كرر "كرابيشكو" وهو يبكي:

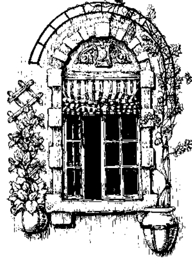
- لا تذهب! لأنك ستربح الكثير..

- هذا رائع!

- .. وستخسر كل شيءٍ آخر.. لا تذهب.. إياك أن تذهب.. أبدًا..

ثم خيَّم الظلام على كل شيء.

66



في الأيام الأخيرة من حياة أناسٍ آخرين، عاش "كرابيشكو" مشلولًا وجائعًا وعطـشانَ. جلس متكئًا على مقعدٍ بالٍ، وكتفاه مغطيان ببطانية، ويرتـدي نظـارةً متعـددة الألـوان وشبشبًا. اصطبغ كل شيءٍ حوله باللون البنـي، كـل مـا حولـه بـدا أشـبه بـذكرى قديمـة منسية. لا شيء يتحرك. لكن إن اقترب منه أحد سـيلاحظ رموشـه ترتجـف فـوق عينيـه المغلقتين. غرقت عيناه في ظلمـةٍ ضـبابية مـن الميـاه البيـضاء خلـف جفونـه، وانغمـس "كرابيشكو" في تفكيرٍ عميق.

لم يكن يتنفس. أم أنه كان يفعل؟

إن كان يتنفس فهو يفعل ذلـك بحـذرٍ شـديد، لأنـه لا يرغـب في إيقـاظ ذكرياتـه المـستعدة لتنـساب وتغرقـه. تطـل نافذتـه المفتوحـة عـلى النوافـذ الزجاجية للمبنى المقابل الجديد. إنها مبانٍ زجاجية في مدينةٍ مـا، ويتـصاعد

منها البخار في فصل الشتاء. شعر "كرابيشكو" بالبرد. تفوح غرفته برائحة عفنة، الفندق بأكمله كذلك. والفئران تجري بين قدميه من آنٍ لآخر.

إنه يحصل على الميتة التي يستحقها.

كان وحيدًا ومغطى بفضلات الفئران والضباب يعمي عينيه. تحيط به المباني الزجاجية التي يمكن رؤيتها عن بعد من خلال النافذة المواربة. المصنوعات الزجاجية منتشرةٌ حوله، والكثير من الشظايا متناثرة على الأرض. وهناك حمامةٌ هبطت على النافذة.

فجأة.. انفتح باب غرفته.

لم يكن يغلقه مؤخرًا. كان "كرابيشكو" وحيدًا جدًا لدرجة أنه كان سيرحب بأي لص. سيكون لطيفًا إن تبادل حديثًا سريعًا مع اللص أثناء السرقة. وكأن لديه ما يستحق السرقة بأي حال!

انفتح الباب وعجز "كرابيشكو" عن رؤية أي شيء. لم يكن ينظر، فعيناه مغلقتان إلى الأبد.. ربما. سمع خطوات. جلس شخصٌ ما قبالته، وسمع أنفاسه.

لم يسأله "كرابيشكو" عن أي شيء. ظل صامتًا ثم سأل:

- "جولابيا"؟

ما من رد.

- "ماندالينا"؟

لا إجابة أيضًا.

ثم فرح فجأة حين ظن أنهم ربما كانوا ممولين مشهورين جاؤوا ليعرضوا عليه عملًا في شركةٍ ما، أو أمريكيون أتوا لسؤاله عن فن تشكيل الزجاج. وقد يكونون بعض الأصدقاء القدامى يدعونه لزيارة مصر أو الصين معهم، أو ربما إلى الهند مجددًا؟

فجأة.. اقترب منه شخصٌ ما.

ارتعب "كرابيشكو". للمرة الأولى في حياته ارتعب بالدرجة نفسها التي شعر بها حين شك في قدرته على صنع الزجاج غير القابل للكسر عندما كان في "بيكوز". ربما شعر بالرهبة التي شعر بها عندما وصل إلى العالم المجهول المليء بجبالٍ تكسوها الثلوج.

اضطرب قلبه وخفق بشدة. شعر بيدٍ تلمس يديه المضمومتين في حجره. كانت يد لطيفة وناعمة وشابة. لا بد أن صاحبها في العشرين على الأكثر.. وربما أقل.

قال لنفسه: "إنه شخصٌ أعرفه حتمًا". ثم ابتسم وسمع صوتًا ذكوريًا:

- أبي! لقد أتيت لأعيدك إلى المنزل.

إنه "بريدان".

خاتمة



لو أن الرجل العجوز الذي رشَّح "كرابيشكو" لـ"جورجز" ما زال حيًّا، لكان عمره الآن يناهز المائتي عام. أمَّا "كرابيشكو".. فبغضِّ النظر عن عمره، فقد بدا أشبه بظلٍ يقترب ببطءٍ من كروم العنب الشاسعة في ذلك الصباح من شتاء فبراير. كان البخار يتصاعد من نهر "فاردار" كعادته كل شتاء.

لما اقترب من حقل العنب، بدا ظله أكثر شبهًا بالبشر. كان يرتدي حذاءً برقبة يصل إلى ركبتيه، ويضع معطفًا ثقيلًا داكنًا على كتفيه. أمسكت إحدى يديه بعصا ليتوكأ عليها، بينما امتدت الأخرى أمامه. عندما وصل إلى الشجيرات التي على الأطراف أسقط عصاه وأمسك شجيرة عنب بيديه.

كان يبحث عن شيءٍ بين أغصان الشجيرات الجافة. اقترب من جذور أول شجيرة، ثم حرك أصابعه للأعلى ببطءٍ، وكأنما الرياح الجنوبية تهب. ما زالت الثلوج منتشرة في أنحاء الحقل، وكروم العنب تمتص أشعة الشمس

التي اخترقت السحاب. تحسَّس الفروع القديمة التي تهدَّلت على الأرض، ثـم انتقـل إلى الأغصان الوليدة ليتحشَّسها ويشعر بنضارتها. تراقـصت ابتـسامةٌ خفيفـة عـلى شـفتيه، لكن لم يلمحها أحد لأنه وحده. بعد ذلك وقف وانتقـل للـشجيرة التاليـة وفعـل المثـل. حرّك يده من الجذور إلى الأعلى ليقطع الفروع القديمة الذابلة ويترك الأغـصان الوليـدة. كرَّر الأمر نفسه مع الشجيرة الثالثة والرابعة والخامسة. اقترب من الصف الأوسـط الآن، وضغط جسده ذو الصدر الضخم على الفروع الجافة التي بدت كمخالب الوحوش.

لم يبذل جهدًا ليحمي نفسه، بينما تضرب الفروع وجهه وذراعيه. أما هو فأصر عـلى اختراقها على الرغم من عماه. ظلت الفروع تضربه بضراوة حتى سال الـدم مـن جـروح وجهه، لكنه لم يتوقف، بل زاد سرعته. ها هو يجري، على الرغم من عمره الذي تخطَّـى المائة عام. تعثَّر بضع مراتٍ، لكنه واصل الجري أسرع إلى البقعة التي تزداد فيهـا كثافـة الفروع. إلى أن أحاطت به تمامًا وحاصرته، فعجز عن الحركة.

فجأة ألقى معطفه عـن كتفيـه وتركـه يـسقط عـلى الأرض. كـان يرتـدي حزامًـا جلديًا عريضًا مع جرابين لوضع مقصات البستنة. توقـف للحظـةٍ واحـدة فقـط، ثـم سحب مقصيه ببطءٍ وحاول أن يلفهما حول إبهاميه، لكنـه فـشل وأسـقط المقـصين. بذل جهدًا مضنيًا لينحني ويلتقطهما. ثم بدأ يقطع الفروع التي تحبسه. كان يطـوح المقصين يمينًا ويسارًا، بينما أطلت الشمس من خلف السحب وسطعت عـلى وجهـه العجـوز الملطـخ بالـدماء. ظـل يلـوح بذراعيـه يمينًـا ويـسارًا، لكـن لـيس برشـاقة شبابه. تساقطت الفروع القديمة الذابلة من حوله وانـدثرت إلى غبـار. أمَّـا الأغـصان

النضرة فظلت متشبثة بقوةٍ في الشجيرة الصغيرة. لا نواح، ولا صرخات ألم تتعالى في ساحة المعركة. لا يوجد سوى شهقاتٍ وأنفاسٍ غريبة ومفاجئة. كانت أنفاسًا أشد قوةً من سكرات الموت. بعد ذلك أخذ يتمتم ببضع كلماتٍ مهددة.

واصل "كرابيشكو" التلويح يمينًا ويسارًا بمقصيه حتى أضناه التعب والإرهاق. سقط على الفروع الجافة المحطمة المتناثرة من حوله بلا حول ولا قوة. هذا الجسد الميت، هذا الظل بشري القاتم.. كان يرقد أرضًا على وجهه ويتنفس. كان يتنفس بلهفة. ثم انطلقت من أعماقه زمجرة قوية وصاخبة. قال:

- تبًّا لكم.. جميعًا.. تبًّا لكم.



صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
2.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
3.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
6.	لأننا كنا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
7.	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
8.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
9.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
10.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
11.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
12.	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
13.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
14.	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
15.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
16.	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
17.	جالفايس	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
18.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
19.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
20.	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
21.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
22.	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
23.	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
24.	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
25.	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
26.	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
27.	توباز	هاكان جنيد	تركيا
28.	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
29.	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
30.	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا

31.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34.	مينتا	سوللماز كاموران	تركيا
35.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36.	الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
37.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43.	الكنائس السبع	ميلوس أوربان	التشيك
44.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50.	فيل في الحديقة	ميرال قريشي	سويسرا
51.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52.	بين الجبل والبحيرة	جوو دا شين	الصين
53.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54.	النجمة الحمراء	يركسي هوللمانبيك	الصين
55.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56.	رئيس القبيلة الأخير	يي مِاي	الصين
57.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
58.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكاينن	فنلندا
59.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
60.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
61.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
62.	كرابيشكو	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا

63.	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
64.	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
65.	دكان الساري	روبا باجوا	الهند
66.	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
67.	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
68.	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

69.	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
70.	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
71.	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
72.	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
73.	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
74.	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
75.	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
76.	ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
77.	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
78.	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
79.	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
80.	لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
81.	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
82.	الجري	ثور جوتاس	النرويج
83.	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
84.	اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

85. النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
86. وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
87. أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
88. القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
89. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
90. ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
91. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
92. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
93. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
94. التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
95. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
96. هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

97. بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
98. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا



#كتب_مختلفة #مقدونيا

"صانع الزجاج" رواية مسلية بها لمحة فلسفية ستحمل القارئ إلى عالم سحري.

"هناك بستانيٌ في حينا، إنه بارعٌ للغاية في استخدام أدواته لدرجة أنه يستطيع تشذيب لحيتك الصغيرة التي تعشقها دون أن تشعر ودون أن يطرف له رمش. اسمه كرابيشكو!".
بهذه الجملة تبدأ روايتنا. "كرابيشكو" رجل مقدوني ضخم ذو صدر عريض ورأس صغير. بارع في استخدام مقصات الزرع، وهي المهارة التي ستكون السبب في انطلاقه في أكبر مغامرة في حياته. مغامرة ستحملة عبر وسط أوروبا في بلاد لم يرها في حياته ولم يظن يومًا بوجودها ليتعلم لغات غريبة وحرف جديدة.. بدأ هناك بتشذيب شجيرات كروم العنب، لكنه لم يلبث كثيراً حتى وجد الحرفة التي سيحبها طوال عمره.. نفخ الزجاج. صنع "كرابيشكو" أشكالًا زجاجية جميلة رائعة أبهرت الجميع وأخذته إلى بلدانٍ كثيرة خاض فيها الكثير من المغامرات في تركيا، واليونان، وفي بلده مقدونيا.



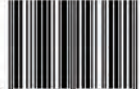
إرميس لافازانوفسكي

وُلدَ في الثامن من ديسمبر عام 1961 في مدينة "كلوج" برومانيا عام 1961. يهتم بكتابة الأدب والمقالات الأدبية ويهتم كذلك بالكتابة عن الثقافة والأنثروبولوجيا. تخرج في كلية فقه اللغة بمدينة "سكوبيا" عاصمة مقدونيا، وحصل على الدكتوراة فيها. يعمل في معهد الفلكلور "ماركو سيبنكوف" بمدينة "سكوبيا". وهو عضوٌ بجمعية الكُتَّاب المقدونيين منذ عام 1994.

وهو رئيس منظمة "بين" بمقدونيا، وهي منظمة أدبية عالمية لا تهدف إلى الربح وتعمل على إعلاء شأن الكُتَّاب ونشر الأدب والدفاع عن حرية التعبير في جميع أنحاء العالم.
تُرجمت رواياته إلى العديد من اللغات الأجنبية، وأشهرها "كرابيشكو"، والتي ترجمناها إلى "صانع الزجاج"، وهي الرواية التي رُشحت لتمثل الأدب المقدوني في مسابقة للأدب البلقاني للفوز بالجائزة الأدبية "بالقانيكا".
فاز بالجائزة التي تقدمها جمعية الكُتَّاب المقدونيين عام 2001، وجائزة **Prose Masters** في العام نفسه.



WWW.alarabipublishing.com.eg



ISBN 978-977-319-359-1



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg